جامعة الأزهر

كلية أصول الدين بالقاهرة

النظم الشرعية والوضعية

النشأة والتطور

دكتور

محمدي عبد البصير عبد العزيز حضيري

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه والتابعين ، وبعد فالنظم مظهر من مظاهر التقدم والرقي الحضاري ، ولاشك أن معرفة نشأة النظم وتطورها باب من أبواب البحث المعقدة والشائكة ، تحتاج في تحديدها وبيان معالمها إلي عالم عليم خبير يملك أدوات العلم الصحيح والإخبار الصادق ، وصولا بالقلب والعقل إلي مرحلة البراهين واليقينيات الكبرى التي لا تعرف الاحتمالات ولا يتطرق إليها الشك .

وفي ظل الحالة الفكرية التي يعيشها العالم الآن ، ويهدف دعاتها إلي هدم الثوابت وتقويض الأصول ومحو المعالم ، في حالة من التلبيس والأبلسة والتدجيل حتى يتحقق لهم المسخ المطلوب والوضع المقلوب للمجتمعات الإسلامية بل والعالمية . في ظل هذه الحالة يشتد الطلب ، وتصبح الحاجة ملحة لدراسة (النظم الشرعية والوضعية النشأة والتطور) لنجمع بذلك بين المقدمات والنتائج ، والتصورات والتصديقات ، ونصحح مفهوم الحضارة وأين يكون موطنها الحقيقي ، في الماضي والحاضر والمستقبل ؟ وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة مباحث :

المبحث الأول : مفهوم النظم.

أولاً : في اللغة .

ثانياً : في الاصطلاح .

١ – مفهوم النظم الإسلامية .

٢ – مفهوم النظم الوضعية .

المبحث الثاني : نشأة النظم .

أولاً : نشأة النظم في التصور الإسلامي .

ثانياً : نشأة النظم الوضعية .

ثالثاً : موازنة بين النشأتين .

المبحث الثالث : النظم بين الثبات والتطور .

أولاً : النظم الإسلامية .

١ – ثابت المصدر(الوحي الإلهي) .

الوحي الإلهي مصدر النظم السابقة.

الوحي الإلهي مصدر النظم في رسالة الإسلام الخاتمة .

٢– النظم وتطورها .

٣– مقومات التطور في شريعة سيدنا محمد –صلي الله عليه وسلم–.

المبحث الرابع : أثر النظم .

أولاً : أثر النظم الإسلامية .

١ – أثر النظم الإسلامية في بناء الإنسان .

٢ – أثر النظم الإسلامية في بناء الأسرة .

الواضحة المتعينة واصطنعها مصطلحا له مخصوصا . فأنت ترى أن كلمة (الدين) في القرآن الكريم تقوم مقام نظام بأكمله . يتركب من أجزاء أربعة هي :

١ – الحاكمية والسلطة العليا .

٢ – الطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة .

٣ – النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكيمة .

٤ – المكافأة التي تكافئها السلطة العليا علي اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو علي التمرد عليه والعصيان له "[١].

ومن الأمثلة علي المعنيين الأول والثاني قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ {١١} وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ {١٢}﴾[٢] وقوله تعالي : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ {٥٢}﴾[٣].

ومن الأمثلة علي المعنيين الثالث والرابع قوله تعالي : ﴿ كَذَلِكَ لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[٤] . وقوله تعالي ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾[٥] . وقوله تعالي: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {٦}﴾[٦] . وقوله تعالي : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ {٥} وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ {٦}﴾[٧] .

وهكذا فكلمة الدين تشير إلي النظام والنظم ولكنها ليست علي إطلاقها، بل لابد أن تقيد بالدين الإسلامي لتخرج كل ما عداه مما يسمى دينا ، سواء كان وضعيا أو محرفاً لأنها لا تحتوى علي نظام كامل بل يعتريها القصور في كثير من جوانب الحياة الإنسانية والكونية .

وهذا ما أفاده القرآن الكريم فهو " يستعمل هذه الكلمة مصطلحا جامعاً شاملاً يري فيه نظاما للحياة يذعن فيه المرء لسلطة عليا ، ثم يقبل إطاعته واتباعه ويتقيد في حياته بحدوده وقواعده وقوانينه ، ويرجو في طاعته العزة والترقي في الدرجات وحسن الجزاء ، ويخشى في عصيانه الذلة والخزى وسوء العقاب . ولعله لا يوجد في لغة من لغات العالم مصطلح يبلغ من الشمول والجامعية أن يحيط بكل هذا المفهوم "[٨].

---

(١) أبو الأعلي المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن ، دار التراث العربي ١٩٧٥ ص ٨١ .

(٢) سورة الزمر الآية : ١١ – ١٢ .

(٣) سورة النحل آية : ٥٢ .

(٤) سورة يوسف أية : ٧٦ .

(٥) سورة الشورى أية : ٢١ .

(٦) سورة الكافرون أية: ٦ .

(٧) سورة الذاريات أية : ٥ ، ٦ .

(٨) أبو الأعلي المودودي . المصطلحات الأربعة في القرآن ص ٨٥

وعلي ضوء ما قدمنا من الممكن أن نقول : إن النظم تساوي الدين الإسلامي ، هذا علي سبيل الإجمال ، أما علي سبيل التفصيل والبيان فمن الممكن أن نقول : النظم الإسلامية هي القواعد والقوانين والحدود الإلهية التي شرعها الله – تعالي – للإنسان لتقوده إلي السعادة في كل المجالات ومختلف العلاقات في الحياة وبعد الممات .

أو أن نقول : " هي القواعد والمبادئ والعادات التي تقوم عليها الحياة في ظل الإسلام – عقيدة وشريعة وخلقا – والتي تحدد للإنسان حركة نشاطه في كافة المجالات ومختلف العلاقات "[١].

ويمكننا أن نعرف نظام الإسلام ككل بأنه هو ما تفيده مجموعة القواعد والمبادئ التي جاء بها الإسلام لتحديد النشاط البشري في الحياة علي مستوى الأفراد والجماعات داخل إطارها[٢].

٢– مفهوم النظم الوضعية :

تعددت أقوال علماء الاجتماع في النظام والنظم علي تعدد مدارسهم وتنوع أفكارهم .

وفي البداية نقول : " يستخدم مصطلح نظام اجتماعي في علم الاجتماع للإشارة إلي كل ما هو ثابت ومقرر في المجتمع "[٣].

ويرى (جولدنر) أن النظم هي الطرق المقننة لحل مشكلات المجتمع[٤].

أما كولي وديفيز ، فإنهما ينظران إلي النظم علي أنها مركبات واسعة من المعايير التي يقرها المجتمع ليعالج بها أو ليقابل بطريقة منظمة ما يعتبره حاجاته الأساسية .

ويقول ديفيز في محاولة تحديد أوضح : " إن النظم مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين ، تتداخل فيما بينها حول وظيفة أو أكثر ، مكونة أجزاء من البناء الاجتماعي ، تعرف بتنظيمها المحكم وتمايز وظائفها"[٥].

والمتأمل في مفهوم النظم لدي علماء الاجتماع يرى أنه " ليس هناك تطابق تام

---

(١) د. مصطفي أبو سمك : نظرات في نظم الإسلام وثقافته ، مكتبة المسلم العصرية إسلاميات ٥٢ المؤسسة العربية الحديثة ١٩٨٨ م. ص ٩.

(٢) د. عبدالغفار عزيز وآخرون : أضواء علي النظم والثقافة الإسلامية ، مؤسسة الوفاء للطابعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ص ٦

(٣) د. محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٤٤ .

(٤) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية لطلاب قسم الاجتماع ، نخبه من أساتذة قسم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ٢٤٤ .

(٥) د. محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ث ٢٤٥ .

بين النظام والحاجات المجتمعية ، فالحاجة الواحدة قد يشترك في إشباعها أو تحقيقها أكثر من نظام ، علي الرغم من أنها قد تمثل لبعض النظم وظيفة ثانوية"[١] ، وهذا بدوره يؤدي إلي فقدان النظم خاصية الترابط والوحدة في الهدف والغاية والتعاون لبناء الإنسان السوى .

" فالأسرة – مثلا – باعتبارها من النظام الاجتماعي ، لا يمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الأخرى التي تؤثر فيها ، والتي قد تحدد مستقبل نموها كالنظم الخلقية والنظم الاقتصادية والنظم السياسية وغيرها ، ولذلك فإدراك العلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهري لفهم الحياة الاجتماعية" [٢]

وبناءاً علي ذلك جاءت رؤية علماء الاجتماع لمفهوم النظم " رؤية قاصرة حيث كانت نظرتهم إلي النظم البشرية فحسب ، ولم ينظروا إلي النظم التي جاءت عن طريق الوحي ، وذلك لأنهم نظروا إلي الدين نظرة قاصرة ، فجعله بعضهم نظاماً من النظم التي يصنعها الإنسان أو المجتمع ، وذلك خطأ علمي كبير وقع فيه علماء الاجتماع في البيئات التي عرفت الرسالات المحرفة فعزلتها ، ولا يليق تقليدهم هذا في البيئات التي عرفت صفاء الوحي ونقاءه في الإسلام[٣].

والخلاصة أن مفهوم النظم كما يصوره علماء الاجتماع يدور حول المعاني الآتية :

كل ما هو ثابت ومقرر في المجتمع .

الطرق المقننة لحل مشكلات المجتمع.

مركبات واسعة من المعايير التي يقرها المجتمع ليعالج أو ليقابل بطريقة منظمة ما يعتبره حاجاته الأساسية .

(١) الرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٤٥ .

(٣) أنظر د. محمد رأفت سعيد : المدخل لدراسة النظم الإسلامية ، هجر للطباعة والنشر ص ٧ .

المبحث الثاني
نشأة النظم

بعد أن وقفنا علي ماهية النظم ومفهومها عند علماء الاجتماع وفي المفهوم الإسلامي، يتسنى لنا أن نبحث قضية أخرى ألا وهي نشأة النظم وتاريخها ، ويحق لنا عند ذلك أن نسأل سؤالاً هو من الأهمية بمكان . فنقول: متي عرف الإنسان القوانين في حياته ؟ ومتى خضع الإنسان للنظم والنظام في تنظيم حياته ؟ وما هي معتقدات الناس في ذلك ؟ وما هو موقف الباحثين ؟ وحتى تأتي إجابتنا علمية موضوعية لابد أن نعرض للآراء الواردة بشأنها .

أولا : نشأة النظم في التصور الإسلامي .

١ – الإنسان الأول والنظم (آدم) عليه السلام .

ترتبط النظم في وجودها بوجود المجتمع ، والإنسان هو أساس المجتمع ، وقد تناول القرآن الكريم قضية بداية المجتمع الأول ونشأته ببيان خلق الإنسان الأول وهو آدم – عليه السلام – والذي جاء علي النحو التالي :

– التقديم لخلق الإنسان ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[١].

– خلق الإنسان الأول وبيان طبيعته وعناصره ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ {٢٨} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩} ﴾[٢] . وقوله تعالي : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ {٧١} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ {٧٢} ﴾[٣].

فأما قبضة الطين فهي الجسد البشري الذي يحتوى علي ذات العناصر التي يتكون منها طين الأرض . وأما نفخة الروح فلا نعلم شيئاً عن كنهها ولكننا نرى آثارها واضحة في قبضة الطين . فعن طريقها منح الإنسان كيانه الإنساني المتفرد ، الذي تميز به عن المادة وعن الحيوان "[٤] .

ومن آدم خلق الله زوجه حواء ، ومنهما بدأ التناسل والتكاثر البشري وتكونت القبائل والشعوب والمجتمعات والأمم .

(١) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الحجرات الآية ٢٨ : ٢٩ .

(٣) سورة ص آية : ٧١ ، ٧٢ .

(٤) محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، مؤسسة بدران ٣٧ .

وإذا أردنا أن نعرف بداية المجتمع ، فإن الله – سبحانه – ذكر أن المجتمع الإنساني بدأ برجل وامرأة هما آدم وحواء، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) . وتوضح هذه الآية أن ذرية آدم وحواء تكاثرت منهما وتطورت إلي شعوب وقبائل ، وهذا ما توضحه الآية الأخرى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ (٢) . ولم يقتصر الأمر علي الشعوب والقبائل ، بل حتى هذه تطورت في نهاية الأمر إلي ما يسمى بالأمم، حيث تعتبر العقائد والأديان هي المميزة بينهما " (٣) . وإليها الإشارة بقول الله – تعالى – : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (٤) . وإقامة الأمة أمر إلهي ومطلب رباني وواجب ديني واجتماعي

وهذا ما يشير إليه قول الله – تعالي – ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤} ﴾ (٥) . ومما سبق يقرر القرآن الكريم الحقائق التالية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية المجتمعات :

– أن آدم هو الإنسان الأول الذي خلقه الله خلقا مستقلا منفصلا عن بقية الأجناس الأخرى للاستخلاف في الأرض وعمارتها بمنهج العبادة لله .

– أن الله خلق له زوجه حواء من نفسه لتكون المودة والرحمة والسكن بينهما أتم وأكمل وأشمل وأعم ، وبذلك كانت النواة للأسرة الأولي .

– ومنذ هذه اللحظة بدأت الأسرة الأولي في التكاثر والتناسل فكان أولاد آدم ، وهذا ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالي : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {٢٧} ﴾ (٦) .

وأما عن موقف الإنسان الأول من النظم والقوانين والقواعد المنظمة لحياته بما فيها من معتقدات وأفكار ومعاملات

(١) سورة الحجرات الآية : ١٣ .
(٢) سورة النساء أية : ١ .
(٣) منصور زويد المطيري : الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والامكان ، كتاب الأمة ٣٣ ط أولي ١٩٩٣ م ص ١١٠.
(٤) سورة آل عمران أية : ١١ .
(٥) سورة آل عمران الآية : ١٠٤ .
(٦) سورة المائدة أية ٢٧

وأخلاق ، " فمن الأمور البدهية حاجة المجتمع إلي قانون ينظم العلاقة بين الأفراد ، ويقضي في النزاعات والخصومات ويحكم ويعدل . وقد اتبع آدم – عليه السلام – وزوجه القانون الإلهي ، وهو الدين الحنيف "(١) وقد بينت آيات القرآن الكريم هذا الجانب أوضح بيان ، فآدم – عليه السلام – نال من التكريم ما لم ينله مخلوق آخر ، وأوليات التكريم تقتضي المحافظة علي هذا المخلوق ولا يتم ذلك إلا بالنظم والقوانين والقواعد ، تلك التي تبينها الشرائع الإلهية يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً {٧٠} ﴾ (٢).

وآدم – عليه السلام – علمه الله الأسماء كلها وخصه دون بقية المخلوقات بالبيان ، ومن جملة الأسماء التي علمه الله إياها النظم والقواعد ، وقد استوعبها آدم – عليه السلام – واستظهرها من خلال خصيصة البيان" يقول تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ {١} عَلَّمَ الْقُرْآنَ {٢} خَلَقَ الْإِنسَانَ {٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ {٤} ﴾ (٣). ويقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ (٤).

هذا علي سبيل الإجمال أما علي سبيل التفصيل والبيان ، فهناك علامات ومعالم واضحة في حياة آدم تؤكد مصاحبة النظم له منذ البداية ، فقد نظم الله له حياته الزوجية ، وذلك في قوله تعالي : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (٥) . أي أن حواء كانت زوجة لرجل واحد هو آدم – عليه السلام– ولم تكن مجرد امرأة ، وإنما كانت زوجة أي قرينة له ، تقوم الحياة بينهما علي مواثيق وعهود مغلظة ، لكل منهما في هذه الحياة دوره وعمله .

وظهرت صورة النظام والقانون الإلهي في حياة آدم – عليه السلام – من خلال مفردات القانون ، والتي تتمثل في المأمورات والمحظورات ، وذلك في قوله تعالي : ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ {١٩} ﴾ (٦) . ومن جملة القوانين الإلهية التي أوحاها الله إلي آدم لتنظيم حياته ما جاء في قوله تعالي :

(١) المصدر السابق ص ١١٢ .
(٢) سورة الإسراء آية : ٧٠ .
(٣) سورة الرحمن آية ١ : ٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٣١ .
(٥) سورة البقرة آية : ٣٥ .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٩ .

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى {١١٧} ﴾ (١).

وهكذا " لم يترك الله – تعالى – حياة هذه الأسرة تسير فوضى ، دون تنظيم وضوابط تحكم سلوك الزوجية ، وإنما أراد الله – سبحانه وتعالى – أن ينظم حياتهما ويدربهما على النظام والطاعة " (٢).

ولم يكن هذا جديداً على آدم – عليه السلام – فقد عاشر من قبل " قانونا صدر لغيره ، وخوطب به الملائكة ، ورأي آدم عاقبة مخالفته ، وهو ما يبينه قول الله – تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {٣٤} ﴾ (٣). وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ {٧٥} قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ {٧٦} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ {٧٧} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ {٧٨} ﴾ (٤).

ولم يقف القانون الذي صدر للملائكة على الأمر بالسجود – وهو محتمل التنفيذ وعدم التنفيذ ، وعلى صدور الحكم من الحاكم – جل وعلا – بالجزاء والعقوبة – بل أضيف إلى ذلك تنفيذ الحكم ، وإيقاع الجزاء على المجرم العاصي الخارج على القانون ، فإذا نظرنا إلى الأمر الصادر من الله للملائكة وتنفيذ الأمر ، وظهور تمرد وعصيان ومخالفة من أحد المأمورين ، وصدور الحكم وتنفيذه ، نجد أن عناصر القاعدة القانونية وخواصها موجودة ومتحققة ، كما هي موجودة ومتحققة في القانون الصادر للأسرة الأولى ، المكونة للمجتمع الإنساني "(٥).

ولما نزل آدم – عليه السلام – إلى الأرض نزل مزودا بهذه التجربة العملية ، وذلك لأهمية النظام ودوره في إصلاح حياة الفرد والجماعة ، وقد تلقى آدم من ربه أول دستور جامع لقواعد وقوانين ومبادئ إدارة الحياة والاستخلاف في الأرض ، وإلى هذا يشير قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {٣٧} ﴾ (٦). وأعلن الله آدم أن

(١) سورة طه آية : ١١٧ .
(٢) د . محمد طموم : الإنسان الأول والتشريع السماوي ص ٥٩ .
(٣) سورة البقرة آية ٣٤ .
(٤) سورة ص آية : ٧٥ : ٧٨ .
(٥) المصدر السابق ص ٦٢ .
(٦) سورة البقرة آية . ٣٧ .

التشريع والقانون هو ما كان من عند الله وحده لا شريك له ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {٣٨} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٣٩} ﴾ (١). وفي قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {١٢٤} ﴾ (٢) وهكذا فخصائص النظم كانت واضحة في حياة الإنسان منذ الأسرة الأولى ، إلى هذا تشير كلمة (هدى) التي تفيد النظام كما سبق في المعنى اللغوي لكلمة نظم .

وفي قصة ابني آدم توضيح وبيان لرحلة الإنسان مع النظم الإلهية ، وقيامها منذ اللحظة الأولى ترعى جوانب حياته المتعددة ، يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {٢٧} لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {٢٨} إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ {٢٩} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {٣٠} فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {٣١} مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣).

يروى ابن كثير عن ابن عباس قال : نهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيرها من إخوتها ، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك، ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال : لا أنا أحق بأختي ، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله " (٤).

(١) سورة البقرة آية : ٣٨ : ٣٩ .
(٢) سورة طه آية : ١٢٣ : ١٢٤ .
(٣) سورة المائدة آية : ٢٦ / ٣١ .
(٤) قال ابن كثير : إسناده جيد . تفسير القرآن العظيم ، مكتبة دار التراث ٢ / ٤٢ .

وأسرته :

ظهرت معالم النظم في حياة آدم وأسرته من خلال الحقائق القرآنية على النحو التالي :

– أن الأسرة كما رأينا هي الخلية الأولي للمجتمع الإنساني ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ {٣٥}﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً {١}﴾ [1] وفي هذا رد علي من يقول : إن أساس الخلية الاجتماعية هو القبيلة أو العشيرة .

– أن هذه الأسرة كانت أسرة أبوية ، والقيادة فيها كانت للزوج آدم ، حيث توجه إليه الخطاب في كل الأحوال ، سواء أكان الخطاب من الله – سبحانه وتعالي – أم كانت الوسوسة من الشيطان ، يقول تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى {١١٦} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى {١١٧} إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى {١١٨} وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى {١١٩} فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى {١٢٠} ﴾ ويقول تعالى : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ {١٩} فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ {٢٠} ﴾ [2].

– علم الله آدم معني القانون والنظام ، وما يترتب علي الطاعة والمعصية والفرق بينهما .

– علم الله الإنسان أمورا كثيرة ومعاني متعددة لا يمكن حصرها ، منها علي سبيل المثال :

الجنة والنار ، الخلود والتأقيت ، الكفر والتسليم ، المعصية والطاعة ، الكبر والخضوع ، المتعة والشقاء ، السكن والاستقرار ، والخوف والحزن ، الأمر والنهي والإباحة ، يوم القيامة والحشر ، الهبوط والخروج ، الهدي والإعراض ، العرى والستر (العورات) الجوع والظمأ ، وغير ذلك [1] . ومن المعالم التي نستخلصها ما يأتي :

– أن تشريع الزواج كان موجودا ، وأنه لم يكن مباحاً بكل النساء ، وأن بعض النساء كن محرمات علي بعض الرجال ، فلا يجوز الزواج بهن .

– أن الزواج بدأ برجل وامرأة واحدة ، دون تعدد مطلقا ، حيث لا تعدد في النساء ، ومن باب أولي لم يوجد تعدد في الرجال بالنسبة للمرأة الواحدة ، كما يدعي أصحاب النظريات السابقة ، القائلون بالنظام القبلي الأمي في تكوين المجتمع الإنساني الأول .

– تحريم القتل ، وعلم أفراد المجتمع الإنساني الأول بذلك التحريم ، وما يترتب عليه من إثم ، ودخول النار ، لأن ذلك جزاء الظالمين .

– دفن الإنسان شرع من أول وجود الإنسان وموت أول إنسان علي الأرض [2].

– القربي والتقرب ، ووسيلة التقرب ، وعلامة القبول وعدم القبول ، ومن الذي يتقبل منه .

– الصفات الأخلاقية، التقوى وخوف الله ،المعصية والإثم ، والظلم والاعتداء وجزاء ارتكاب المعاصي ، اليوم الآخر والحساب والجنة والنار [3]

ومن الممكن أن نجمع هذه المعالم فيما يأتي :

١ – العلم بالله والتقرب إليه بقربان طلبا لمرضاته .

٢ – العلم بأن الله لا يقبل إلا ما كان طيبا وكان فاعله تقيا .

٣ – الخوف من الله يحول دون الإقدام علي المعصية .

٤ – للكون إله واحد لا رب سواه . (إني أخاف الله رب العالمين).

٥ – العلم بالثواب والعقاب والمترتبين على العمل .

٦ – العلم بالجنة ولمن هي والنار ولمن أعدت .

وهذا يؤكد علم الأولين بالحق والتكاليف الشرعية والجنة والنار"[4] .

وبذلك يكون آدم – الإنسان الأول – قد بدأ حياته متبعاً للوحي الإلهي ، مما يؤكد أنه كان هناك قانون ونظام وتشريع يحكم سلوكه وتصرفه ،

---

(١)سورة البقرة آية ٣٥ سورة النساء آية ١ .

(٢) سورة الأعراف : أية ١٩ ، ٢٠ سورة طه : آية ١١٦ ، ١٢٠ .

(١) أنظر د. محمود طموم : الإنسان الأول والتشريع السماوي ٥٨ ، ٥٩ ، ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة آية ٣١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٤) د. بكر زكي عوض : مباحث في الثقافة الإسلامية ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

بل وتفكيره وقلبه لتصلح عقيدة الإنسان ، ويكون مؤمنا بالله – تعالى – خالقه ، ولم يقف الأمر علي مجرد الإرشاد والتوجيه والتنبيه ، وإنما كان هناك جزاء وعقاب ، وتنفيذ وإيقاع لهذا الجزاء علي الفور ، وهذا بخلاف العقوبة الأخروية لمن أصر علي مخالفة أوامر الله – تعالى – وتمادي في ذلك وكفر.

وكل هذا يؤكد وجود القانون والتشريع الإلهي الذي بدأ مع الإنسان الأول – آدم – وطبقه آدم علي نفسه وعلي أسرته .

٣ – النظم في حياة ذرية آدم – عليه السلام :

رافقت النظم الإلهية ذرية آدم من بعده في كل زمان ومكان ، وهذا ما يوضحه القرآن الكريم من خلال الحقائق التي تتصل بنشأة المجتمعات الإنسانية .

الحقيقة الأولي : إرسال الرسل :

الرسل بشر ، ولكل رسول رسالة تحتوى علي القواعد والمبادئ المنظمة لحياة من أرسله الله إليهم ، وحتى تتضح لنا هذه الحقيقة لابد أن نستعرض بعض النصوص القرآنية الواردة في هذا الموضوع ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ ﴾[٢] . وهذه الآية تقرر أن الله " بعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولا ، وكلهم يدعون إلي عبادته وينهون عن عبادة ما سواه "[٢] . فما بقي في الأرض أحد لم تبلغه الدعوة يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ {٢٤} ﴾[٣] . وأرسله إليهم بشيرا ونذيرا إما بنفسه وإما بما أبقي في أعقابهم من شرائعه ، من أقواله وأفعاله ورسومه ، مع ماهم من العقول الشاهدة بذلك ، والنذارة دالة علي البشارة][٤] . ومن ثم تلاحقت رسالات الأنبياء وتواصلت ، يقول تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ {٤٤}﴾[٥] . وذلك حتى لا يبقي لأحد من الناس علي الله احتجاج يقول تعالي : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس

---

(١) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٨.
(٣) سورة فاطر آية ٢٤ .
(٤) البقاعي : نظم الدور في تناسب الآيات والسور ، تخريج عبدالرازق غالب ، دار الكتب العلمية لبنان ط أولي ١٤١٥ هـ ١٩٩٥/ م ٦ ٢١٩ .
(٥) سورة المؤمنون آية ٤٤ .

علي الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[١] .

وقد كانت أخبار الرسالات معروفة لدي الأقوام والأجيال ، فكان اللاحق علي علم ودراية بالأنبياء والرسل السابقين ، يقول تعالي : ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[٢] .﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾[٣] ويقول علي لسان نبي الله شعيب – عليه السلام – وهو يذكر قومه بالرسل السابقين : ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ{٨٩}﴾[٤] . ويقول علي لسان مؤمن آل فرعون الذي آمن برسالة موسي – عليه السلام – وهو يذكر قومه برسالة نبي الله يوسف – عليه السلام – : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾[٥] . وهكذا أرسل الله الأنبياء

---

(١) سورة النساء : آية ٦٩ ، ٧٤.
(٢) سورة الأعراف آية : ٦٩ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٧٤ .
(٤) سورة هود : آية ٨٩ .
(٥) سورة غافر آية : ٣٤.

والرسل دعاة ومؤسسين ومطبقين للنظم الإلهية في حياة المجتمعات الإنسانية .

ومن ثم كان عددهم كثيرا ليناسب تفرق الناس شعوبا وقبائل ، وليقوم بالدور الإعلامي الشامل الكامل الذي يغطي كل الأماكن والبقاع ، التي وقفت صعوبة المواصلات والاتصالات حائلا أمام جمع الناس علي رسالة واحدة حتى جاءت الرسالة العالمية الخاتمة ، رسالة سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – والتي تؤكد نظم الاتصالات الحديثة أن العالم أصبح قرية صغيرة تمثل وحدة واحدة تضمن لها الرسالة المحمدية الخاتمة القواعد والمبادئ والقوانين التي تنظم لها حياتها في كافة المجالات .

وفي الهدي النبوي شرح وبيان لهذه الحقيقة التي تتصل برسل الله –تعالى – من ناحية كثافتهم في السابق وتواصلهم الزماني والمكاني منذ آدم – عليه السلام – وإلي أن وصلت منظومة النبوة والرسالة إلي سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . قلت يا رسول الله : من كان أولهم ؟ قال : آدم . قلت يا رسول الله : نبي مرسل . قال : نعم خلقه الله

بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا..وأول النبيين آدم وأخرهم نبيك"[١].

الحقيقة الثانية : إنزال الكتب :

جاء الهدي الإلهي المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[٢]. لينظم جوانب الحياة الإنسانية من خلال الكتب التي أنزلها الله- تعالى – علي أنبيائه ورسله – عليهم الصلاة والسلام – يقول تعالي : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلي نوح والنبيين من بعده ﴾[٣]. وقد أوجب الله علي " عباده – في مواطن عديدة من التنزيل الحكيم – أن يؤمنوا بما أنزل علي رسله وأنبيائه – صلوات الله وسلامه علي خاتمهم وعليهم أجمعين – من كتب وصحف "[٤]. فقال تعالي : " ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{١٣٦} ﴾[٥]

وهذا شأن المؤمنين الصادقين ، فالإيمان بالكتب الإلهية المنزلة علي الأنبياء والرسل إيمان بشمولية النظم الإلهية وحقيقتها في حياة الإنسان منذ وجد ، وأما الكفر والتكذيب والتفريق بين الكتب المنزلة أو التحريف فيها والتمسك بها مع نزول الحق ، فإن هذا المعتقد يعمل لصالح التيار المادي الملحد الذي يبحث الاجتماع والنظم الإنسانية بعيداً عن الوحي الإلهي الصحيح والعناية الإلهية بالإنسان منذ وجوده .

وعليه فقد توعد الله – تعالى – هذا الصنف الأخير بما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالي : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً {١٣٦} ﴾[٦]. وقوله تعالي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً {١٥٠}

(١) ابن مردوية في تفسيره . الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه الأنواع والتقاسيم وقد وسمه بالصحة وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات وقد روي هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر عند ابن أبي حاتم – ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٥٨٥/١ . وآخرجه الإمام أحمد في مسنده إلي أبي أمامة – رضي الله عنه – ٢٦٦/٥ .

(٢) سورة البقرة أية : ٣٨ .

(٣) سورة النساء أية : ١٨٣ .

(٤) د. جوده المهدي : الإيمان والتقوى في القرآن الكريم . المجلس الأعلي للشئون الإسلامية ١٤١٦ هـ ١٩٩٥/ م ٤٠ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٣٦ .

(٦) سورة النساء آية : ١٣٦ .

أُولَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً {١٥١} ﴾[١].

ومن ثم كان الإيمان بكل الكتب التي أنزلها الله علي رسله لتنظيم حركة الإنسان في الحياة هو معتقد الصادقين من أولي الألباب والنهى ، يقول الله – تعالى : ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾[٢] . ويقول تعالي : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {٢٨٥} ﴾[٣] .

وقد جاءت الكتب الإلهية لتحقق للإنسان أمنه وأمانه ، فكانت وثيقة الصلة فيما بينها تحمل النظم والقوانين الإلهية التي تربي الإنسان وتنظم له جوانب حياته المختلفة .

وقد تحدثت السنة النبوية الشريفة عن هذا الرصيد الزاخر من الوحي مبينة غزارته ودوره في حياة البشرية ، وذلك كما جاء عن أبي ذر – رضي الله عنه – " قلت يا رسول الله : كم كتابا أنزله الله ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب (١٠٤) أنزل علي شيث خمسين صحيفة ، وعلي خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلي إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل علي موسي من قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان"[٤] .

وبعد أن قطعت الإنسانية شوطا طويلا جمع الله كل الكتب السابقة في القرآن الكريم وجعله مصدر الهداية والنظم الإلهية الوحيد ، لا يجتمع معه كتاب آخر مهما كانت صلته بالوحي قبل ذلك يقول تعالي : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{٢} ﴾[٥].

وما أجمل الإسلام وهو يؤصل للنظم الإلهية منذ بداية الإنسان ويجعلها عقيدة وفكراً إسلاميا لا يصح الإسلام ولا يكمل الإيمان إلا بهذه العقيدة التي تحمل في طياتها الإقرار بنظم الله ، فالمسلم كما رأينا مطالب بأمرين :

– الإيمان بالكتب المنزلة علي الرسل والأنبياء السابقين .

– الإيمان بالرسل والأنبياء السابقين.

وقد روى الإمام البخاري ومسلم في صحيحهما الحديث الذي يبين ذلك

(١) سورة النساء آية : ١٥ ، ١٥١.

(٢) سورة الشورى آية : ١٥.

(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٨٦.

(٥) سورة البقرة آية : ٢ .

ويوضحه ، واللفظ للإمام مسلم عن عبدالله بن عمر قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر. ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلي النبي – صلي الله عليه وسلم – فأسند ركبتيه إلي ركبتيه ، ووضع كفيه علي فخذيه ، قال يا محمد أخبرني عن الإسلام : فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا : قال : صدقت قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان . فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال فأخبرني عن الساعة : قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال : فاخبرني عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان . قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل آتاكم يعلمكم دينكم "[1] .

ثانيا : نشأة النظم والوضعية:

يصور لنا بعض المتخصصين في علم الاجتماع هذه القضية فيقول : "لقد نشأت النظم الاجتماعية من خلال اجتماع الأفراد ، وتبادل أفكارهم ، واتحاد مصالحهم بصفة تلقائية ، فظهرت قواعد خاصة لتحقيق دوافعهم الاجتماعية وحاجاتهم الضرورية وأهدافهم المشتركة ، وسرعان ما ترسبت هذه القواعد في بنية المجتمع وتركيبه ، ويكتب لها الاستقرار النسبي ، وتنفعل بها مشاعر الأفراد . هذه القواعد والأوضاع والقوالب العامة هي ما نسميه بالنظم الاجتماعية "[2] .

إذن فالنشأة ليست محددة ولا واضحة ، وإنما هي ترجيحية أكثر منها حقيقية ولا يصح بشأنها حقيقة مسلمة ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان . باب تعريف الإيمان والإسلام – شرح النووي المطبعة الأميرية ١/١٥٧. البخاري في صحيحة كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل للنبي – صلي الله عليه وسلم – عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي – صلي الله عليه وسلم – له . فتح الباري ، راجعة طه عبدالرؤوف سعد . مصطفي سعد الهواري ، مكتب القاهرة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ١ / ١٩٢ .

(٢) د. محمد عبدالسميع عثمان : أسس علم الاجتماع المفاهيم والقضايا ، المكتب الفني بالزيتون ص ١٦٧ .

وهذا بدوره يلقي بظلال التضليل المتعمد حتى يعيش الإنسان حياته بعيدا عن المصدر الحق في ذلك والرأي الصواب ، وهذا يشير بالاتهام إلي أصابع أعداء الدين الخفية التي تعبث بعقل الإنسان حتى تصرفه عن غايته السامية ومهمته الحقيقية التي خلق من أجلها ، لأنه مما لا شك فيه أن معرفة الإنسان بنشأة النظم وتاريخها يعطي وجوده قيمة وأهمية ، وهنا يأتي دليل العناية الإلهية بالإنسان منذ خلقه الله واستخلفه في الأرض .

وتبدو علامات الاضطراب واضحة وجلية علي أراء علماء الاجتماع فيما يخص نشأة النظم من خلال موضوع بحثهم وتعدد جوانبه واختلافهم في تحديد مفهومه ومدي أهمية كل نظام بالنسبة للآخر ، ومن هنا كان الخلط بين وجود النظم في حياة الإنسان وبين بداية اهتمام أوربا وغيرها بموضوع النظم ، ويوضح مقصودنا ما جاء في " المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية" تحت مصطلح " نظام اجتماعي " : " يستخدم في علم الاجتماع مثل استخدامه الإنجليزي الشائع للإشارة إلي كل ما هو ثابت ومقرر في المجتمع ، وقد ظهرت عبارة " نظام رأس المال " و " نظام الأسرة " في أعمال أوجست كونت في القرن التاسع عشر "[1] .

وهكذا فالإسهامات حول نشأة النظم من علماء الاجتماع عديمة الجدوى وعلي العكس فقد ساهمت في الإلحاد . كما أن إسهاماتهم في هذا العلم لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر ، وهي إسهامات نظرية لم يكن لها جانب تطبيقي ، والأبواب المطروقة عندهم قليلة وفقيرة .

وقد تعددت النظريات حول تكوين المجتمع البشري ونشأته وجاءت علي النحو التالي :

– أن أساس الجماعة كان يقوم علي صلة روحية تجمع أفرادها علي شيء مشترك ، تعتقد أنها نسلت منه يسمى : التوتم[2] .

– أن هذا الأساس هو القبيلة أو العشيرة .

– أن الأساس هو الأسرة [3] .

وكانت صلة الإنسان بالنظم في ذلك الوقت " تقوم علي القوة فكانت الجماعات هي التي تنشئ الحق وتحميه ، وهي الحكم في كل خصومة والفيصل الحاسم لكل نزاع ، وكان القوى هو

(١) مصدر سابق ص ٢٤٤ .

(٢) التوتم هو عبارة عن حيوان أو نبات أو ظاهرة طبيعية ، تعتقد الجماعة أنها تناسلت منه .

(٣) د. محمد طموم : الإنسان الأول والتشريع السماوي مطبعة حسان ١٩٨٤ ص ١٠ .

صاحب الحق في كل ما يناله بالغلبة والقهر "[١] .

وأمام هذه النظريات تبقي النظم في حياة الإنسان غير واضحة المعالم، فهو في نظرية التوتمية ينتمي مع الأفراد الآخرين إلي توتم واحد ، " فإذا كان هذا التوتم هو الذئب مثلا ، فهذا يعني أنهم يؤلفون مع فصيلة الذئاب وحدة اجتماعية ، وأسرة مشتركة ذات طبيعة واحدة "[٢] .

وفي نظرية القبلية أو الأسرة الأمية – أي التي تنتسب إلي الأم – كان الأفراد لا يخضعون إلا للقوة في أمورهم ، وكانت النساء مشاعا للرجال ، والولد لا ينسب لغير أمة "[٣].

وقد استند أصحاب هذا الرأي إلي نظرية التطور إلي الأفضل التي ظهرت في القرن التاسع عشر ونادي بها العالم الإنجليزي " داروين " . كما حاولوا دعمها ببعض ما جري في بعض النظم قديما وحديثا "[٤] .

وفي النظرية الثالثة – نظرية الأسرة – ذهب علماء الاجتماع إلي أن الأسرة الأبوية التي تقوم علي رابطة الدم من جهة الأب والجد كانت هي الخلية الأول ، حيث كانت الأسرة التي تتألف من زوجين وأولاد ، ويكون الأب هو صاحب السلطة فيها وينسب الأولاد إليه ، وهو أساس الوحدة الاجتماعية الأولي ومنها تكون المجتمع البشري علي ظهر الأرض "[٥] وفي تقييم النظريات الثلاث يري البعض أنه " يصعب ترجيح أحد الآراء الثلاثة "[٦].

وقد أدي الخلط في نشأة الإنسان إلي الخلط في نشأة النظم وتاريخها وأصبح الأمر أقرب ما يكون إلي التخمين والرجم بالغيب ، فأين تكون الحقيقة؟

ثالثا: موازنة بين النشأتين :

ربط علماء الاجتماع بحثهم في نشأة النظم ببحثهم في نشأة الإنسان الذي تطور في نظرهم عن مخلوقات أخرى ، ومن ثم لم يكن حديثهم محددا ولا يقينيا وغاية ما يقال فيه : إنه افتراضات وتصورات تجعل الإنسان في أسفل سافلين ، ولذلك أسباب عديدة نذكر منها ما يلي :

• نقل معطيات العلم التجريبي إلي مجال النظم والاجتماع وتعميم هذه المعطيات في كل المجالات الحياتية .

(١) نفس المرجع ، ص ١٩ .
(٢) د . محمد طموم : الإنسان الأول والتشريع السماوي ص ١١ .
(٣) د. علي بدوي : أبحاث في التاريخ العام للقانون ص ١٧ ،نقلا عن المصدر السابق ص ١١ .
(٤) د. محمد طموم : مصدر سابق ص ١٤ .
(٥) نفس المصدر :ص ١٦ .
(٦) د. صوفي أبو طالب : مبادئ تاريخ القانون ، دار النهضة العربية بمصر ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ أ م ص ٤٨ : ٤٩ .

• الخلط بين الثوابت والمتغيرات في الأنفس والآفاق .

• التخلي عن أصول المنهج العلمي في البحث ، ومن ذلك دخولهم في مجالات لا تتوفر لديهم المعلومات ولا الأدوات الكافية للبحث فيها .

• غياب الجانب الخلقي عن مقاصد البحث والدراسة ، وبالتالي غياب العلاقة بين البحث العلمي والغاية العظمي التي تتمثل في عبادة الله بالمنهج الذي ارتضاه ، أي الدين الصحيح الذي أنزله لينظم حياة الإنسان في يسر وسهوله في كل مجالات الحياة ، وهذا يتطلب التخلي عن العصبيات والقوميات والرجوع بالإنسان إلي آدميته التي يشترك فيها الجميع .

• كان لرجال الدين من أهل الكتاب وغيرهم دور كبير في إقصاء الدين عن ساحة البحث العلمي وعدم الاقتناع به ، ومن ثم كان من بيان المجالات التي اهتم علم الاجتماع بدراستها والبحث فيها ما أسموه " بالنظم الدينية " التي تعددت ، واختلفت الأديان باختلاف الشعوب تبعاً للقواعد المضطربة التي وضعها علماء الاجتماع .

ولنا أن نستأنس في هذا المقام بأقوال بعض الباحثين بغية إلقاء الضوء علي جوانب هذه القضية .

يقول الأستاذ أنور الجندي : " إن أخطر ما يحاول دعاة التغريب والماديون وأصحاب الفلسفات أن يقولوا : إنهم يصدرون فيما يقولون به من نظريات وأيدلوجيات ومذاهب عن أساس علمي لا يقبل النقض ، ونحن نعلم أن هناك فارقا بعيداً جداً بين العلم وبين الفلسفة وبين معطيات العلم التجريبي القائمة علي البحث والتجربة ، علي النحو الذي يتم داخل المعامل وبين الفرضيات التي لم تؤكدها التجربة بعد ، أو التي قال بها العلم في مرحلة ما ، ثم جاءت تجارب أخرى غيرت هذه المسلمات وتخطتها ، ذلك أن الخطأ والخلط إنما يجئ نتيجة تبني الفلسفات لبعض مؤثرات العلم أو نظرياته ونقلها من مجال العلم التجريبي ، أو من مجال الدراسات البيولوجية ودراسات الطبيعة إلي مجال المفاهيم الإنسانية وقضايا النفس والاجتماع والأخلاق ، بينما لا تصلح أساليب العلم التجريبي في التطبيق علي شئون الإنسانيات من نفس واجتماع وأخلاق ، هذه التي يجب أن تدرس وفق منهج غير مناهج العلوم المادية "[١].

والسبب في ذلك يرجع إلي الكنيسة الأوربية فقد كانت " سببا غير مباشر

(١) أنور الجندي : معلمة الإسلام : دار الصحوة ١٤١١ هـ ١٩٩١ / م /٢/٤٠١ .

أحيانا ومباشراً أحيانا أخرى في نشر الإلحاد والزندقة والكفر الكامل بوجود الله ، وذلك لأن القائمين علي هذه الكنيسة أدخلوا في دينهم كثيراً من الخرافات والخزعبلات ، وجعلوها عقائد دينية ، كألوهية عيسى – عليه السلام – والصلب والفداء ، وأضافوا إلي ذلك كثيرا من الخرافات الدارجة عن الأرض والكون والحياة ، وعندما اكتشف العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة هب رجال الكنيسة ينكرون ذلك ، ويتهمون من يعتقد بالحقائق الجديدة ويصدق بها بالكفر والزندقة ، ولكن حركة العلم لم تتوقف. وقدم العلماء براهين جديدة علي نظرياتهم العلمية فبدأت آراء الكنيسة ومعتقداتها تهزم كل يوم هزيمة جديدة ، فاندفع الناس نحو الإيمان بالعلم المادي كإله جديد سيحمل الرخاء والقوة والرفاهية للناس ، فكان الرفض لكل المعتقدات الدينية والكراهية العامة لكل عقيدة تنادي بالإيمان بالغيب ، واتهام الرسل جميعا بالكذب والتدليس ، وهكذا برزت تيارات الإلحاد العالمي "[1].

وهكذا اتخذت الكنيسة ورجالها الآراء والمواقف التي كان من شأنها أن تذيع في بعض العصور مذاهب بلغت من التطرف في الإلحاد أقصى الحدود[2].

وقد استغل اليهود ذلك فنقلوا النظريات والمصطلحات والمفاهيم من مجال العلم إلي مجال الفلسفة والاجتماع والنظم " فإنها تخضع لكثير من الأهواء والدوافع ، وقد ظهرت نظريات متعددة في مجال العلم البيولوجي ثم لم تلبث أن نقلت إلي مجال العلوم الاجتماعية كحقائق مسلمة ، من ذلك مفهوم التطور ومفهوم تنازع البقاء .وقد تبين أن تقبل هذه الفرضيات ليس سليما علي إطلاقه ، وأن تطبيقه في المجال الاجتماعي ليس صيحا دائما"[3].

وهنا يمكننا أن نعلل اهتمام اليهود بالنظريات الجديدة ونقلها من ميدان العلم إلي ميدان الفلسفة والاجتماع والنظم . وقد جاء ذلك في البروتوكول الثاني " إن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهود) سيكون واضحا لنا علي التأكيد "[4].

(١) انظر عبدالرحمن عبدالخالق : الإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها ، مكتبة الحرمين ط ثانية ص٨ .

(٢) أندرو ديكسون وايت : بين الدين والعلم تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطي آراء علام الفلك والجغرافيا والنشوء ، ترجمه إسماعيل مظهر ، دار العصور بمصر ١٩٣٠ ص ٢٧ .

(٣) أنور الجندي : معلمة الإسلام ٢ / ٤٠١ .

(٤) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون ، تقدير وترجمة

وكان لذلك أثرة البالغ في معظم البلاد الإسلامية ، وخصوصا علي شباب الجامعات وتخصص الآداب والقانون ، فالقائمون علي تدريس علم الاجتماع وتاريخ القانون وما يتصل بذلك من نشأة المجتمعات والنظم يخالفون حقائق القرآن الكريم ويستبدلون بها آراء اليهود من علماء الاجتماع الروس والأوربيين الذين اصبحوا تابعين لهم " منذ سنة ١٩١٣ / م حيث ظهرت أول رسالة مصرية في علم الاجتماع "[1].

وعلي الجانب الآخر جاءت الحقائق الإسلامية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية النظم واضحة تتصل بمصدرها الإلهي ، متابعة في عقيدة الإيمان بالكتب التي أنزلها الله علي رسله حاملة لأصول وقواعد النظم ،

وعقيدة الإيمان بالرسل الذين غطت وشملت رسالاتهم الأرض ، أينما وجد الإنسان ، وقد توافقت هذه الرسالات مع الإنسان زمانا ومكانا ، فالأصول واحدة والأهداف مشتركة والغايات متحدة يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[2].

وتلك إشارة إلي الإطار العام الذي يجمع بين الرسالات وتتفق عليه وتعمل من أجله ، وذلك من خلال المحافظة علي النظم والقواعد والقوانين الإلهية ، وإلي هذا تشير لفظة الدين الواردة في الآية القرآنية السابقة . والمعني ، " شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصي به نوحا ومحمدا وإبراهيم وموسى وعيسى ، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة "[3]. كما كانت الرسالات الإلهية – وهذا في التصور الإسلامي – المنظمة لحياة الإنسان قائمة علي رعاية مصالح وأحوال الإنسان في المكان والزمان اللذين يعيش فيهما الإنسان وصولا به إلي المثل الكامل والقدوة الصالحة والإنسان السوي الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، ومن ثم كان لكل رسالة بعض السمات والخصائص والتشريعات التي تتفق مع الزمان والمكان

عباس محمود العقاد ، المكتب العرب لبناء ط رابعة ص ١٢٣ .

(١) منصور زويد المطيري : الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٨٧ .

(٢) سورة الشوري آية : ١٣ .

(٣) الراري : مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٥٦ .

، تحقيقا لمقتضيات التربية الإلهية ، وهذا أمر تقره وتأخذ به أصول ومناهج التربية تبعا للفروق الفردية الواقعية بين الناس والنشأة الاجتماعية وغير ذلك من الملابسات الأخرى التي تتصل بمجتمع دون مجتمع وبزمان دون زمان ، وإلي هذه الحقائق يشير قوله تعالي : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[1] . وقوله تعالى ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[2] .

ولم يكن هذا تطورا وإنما كان تربية تناسب مقتضى الحال تبعا للعلم والحكمة الإلهية ، ومن ثم كان التضييق أحيانا والتوسعة أحيانا أخرى ، مع التنوع في طرق الأداء ، وكل هذا تربية للإنسان للقيام بالأصول والقواعد الأساسية التي اتفقت فيها كل الرسالات فكانت في النهاية رسالة واحدة ، والحقيقة الثابتة في ذلك " أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء – عليهم السلام – وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج ، تفصيل ذلك : أنه أجمع الأنبياء – عليهم السلام – علي توحيد الله – تعالى – عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه ، وتحريم الإلحاد في أسمائه ، وأن حق الله علي عباده أن يعظموه تعظيما لا يشوبه تفريط ، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه ، وأن يتقربوا بشعائر الله إلي الله ، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها ، وأن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه يتزل الكتاب علي من يشاء من عباده ويفرض طاعته علي الناس ، وأن القيامة حق والبعث بعد الموت حق والجنة والنار حق ، وكذلك أجمعوا علي أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب إلي الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المتزل من الله ، وكذلك أجمعوا علي النكاح وتحريم السفاح ، وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود علي أهل المعاصي ، والجهاد مع أعداء الله ، والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه فهذا اصل الدين ، وإنما كان الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباحها "[3] .

---

(١) سورة المائدة آية : ٤٨

(٢) سورة الحج آية : ٦٧ .

(٣) عبدالرحيم الدهلوي : حجة الله البالغة : دار التراث القاهرة ١٩٧٧ / م ١ / ٨٦ .

المبحث الثالث

النظم بين الثبات والتطور

أولا : النظم الإسلامية .

تتمتع النظم الإسلامية بثبات مصدرها المتمثل في الوحي الإلهي ، وهذا يقتضينا أن نبحث هذه الحقيقة علي النحو التالي :

١ – ثبات المصدر : (الوحي الإلهي) .

الوحي الإلهي هو الطريقة التي نقلت بها الأحكام الإلهية إلي الإنسان لينظم حياته وفق التوجيهات والتعاليم الربانية ، فالوحي هو أساس النظم الإسلامية منذ الإنسان الأول – آدم عليه السلام – ، والوحي أن يعلم الله – تعالى – من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر [1] . ويتضمن الوحي للأنبياء والرسل الشرائع والأحكام الإلهية التي تمثل النظم الإلهية لإصلاح الجبلة الإنسانية .

وقد وصلت هذه الشرائع إلي المجتمعات من خلال الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله للتبليغ والإنذار ، وأهلهم الله لذلك ، فكانوا أكمل الناس

---

(١) محمد عبدالعظيم الزرقاني : مناهل العرفان ، الحلبي ١٩٨٠ ميلادية ١/٦٣ .

خلقا وأحسنهم سيرة وطريقة ، فهم أهل الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، جمعوا بين التبليغ والتطبيق شرحا وبياناً ، سلوكا وأخلاقا في يسر وسهولة ، يثبتون الدعائم ويقيمون الدلائل ، قطعا لعذر المعتذر وإقامة للحجة علي الجاحد المتكبر ، يقول تعالى : ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً {١٦٥}﴾ [2].

والوحي حقيقة تتوافر أدلتها في الفطرة الإنسانية والسنن الكونية ، وتظهر جليا في معجزات الأنبياء والرسل ، وفي المناهج والتعاليم التي يدعون إليها ، ويبقي أثرها في الناس زمنا طويلا ، ولذلك جاءت شبه المنكرين للوحي بعيدة عن الموضوعية مجافية للحقيقة تحمل في طياتها عوامل هدمها ، لم يدفعهم إليها إلا بغض الخير واستعباد البشر وحب العلو والإفساد في الأرض " [3] وقد دحض الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – هذه الشبه بحقائق واضحة تبين للمنكرين مكانة الوحي وتشرح لهم

---

(٢) سورة النساء آية : ١٦٥ .

(٣) راجع في ذلك محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي ، الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٨ ص ٤٢ . محمد عبدالعظيم الزرقاني : مناهل العرفان ٦٥ .

آثاره ومقاصده . يقول تعالى : - على لسان نوح - عليه السلام -: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {٦٣}﴾ (١) وبالوحي بدأت رحلة النظم مع الإنسان، فالوحي هو الأساس الأول الجامع الشامل ولذا كان مصدرها .

- الوحي الإلهي:مصدر النظم السابقة.

منذ خلق الله - تعالي - الإنسان والوحي ينظم حياته ، وذلك من خلال الأنبياء والرسل الذين يمثلون القدوة والمثل الأعلي في حياة الناس ، وقد جاءت حقائق القرآن جلية واضحة وهي تغطي الجوانب التي تتصل بهذه الحقيقة . يقول تعالي : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {٣٧}﴾ (٢) ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً {١٦٣} ﴾ (٣) هذا في أصل الوحي وحقيقته ومصدريته للنظم ، أما من الناحية الموضوعية للوحي وبيان أساسه للنظم الإلهية فيقرره خطاب الأنبياء والرسل لأقوامهم ، كما حكي القرآن الكريم عنهم : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {٦٢}﴾ (٤). وهذا علي لسان نوح - عليه السلام - وقولهم : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ {٦٨}﴾ (٥). وهذا علي لسان هود - عليه السلام - وقولهم : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ {٧٩}﴾ (٦).وهذا علي لسان صالح - عليه السلام - وقولهم : علي لسان شعيب - عليه السلام - :﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ {٩٣}﴾ (٧). والإشارات واضحة في الآيات السابقة ، فالرسالة تحمل الوحي وفيها النظم الإسلامية ، وقد اتخذ الأنبياء والرسل كل الوسائل لتثبيت هذه الحقائق في قلوب المدعوين ، مرة بالنصح والبيان

(١) سورة الأعراف آية ٦٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٣٧ .
(٣) سورة النساء آية : ١٦٣ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٦٢ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٦٨ .
(٦) سورة الأعراف آية : ٧٩ .
(٧) سورة الأعراف آية : ٩٣ .

العملي القائم علي الأمانة ، ومرة بمعالجة المدعوين الذين حال المرض النفسي بينهم وبين قبول النصح .

وقد جمع الله هذه الرسالات في كتب تجمع أحكام النظم ، وكان منها صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل ، وجاءت صياغة هذه الأحكام في هذه الكتب وتلك الرسالات مقرونة بالغايات والمقاصد التي تحققها ، والآثار المترتبة عليها يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (١) . ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ {٤٦}﴾ (٢). وبهذه الطريقة يؤكد الوحي الإلهي قيام العلاقة بين النظم ومقاصدها حتى يعمل في الإنسان ملكة التفكير ويفتح أمامه الطريق إلي الإيمان بالله الواحد الأحد عن قبول واقتناع، وإلي هذا يشير قول الله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {٦٣}﴾ (٣) . وقوله تعالي :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{٢٥}﴾ (٤).

ومن خلال القضايا التي عالجها الوحي الإلهي في رسالات الأنبياء والرسل السابقين تظهر مقاصد الوحي فيما يتصل بالنظم .

- الوحي الإلهي مصدر النظم في رسالة الإسلام الخاتمة .

الرسالة الخاتمة هي رسالة سيدنا - محمد صلي الله عليه وسلم - وهي آخر وحي إلهي في موكب الرسالات الإلهية التي تعمل علي تثبيت قواعد وأصول دين الإسلام في الأرض يقول تعالي: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ {١٣}﴾ (٥) . وقد جاء الوحي في الرسالة الخاتمة عاما وشاملاً لكل مقاصد الوحي في الرسالات السابقة ، وبيانا

(١) سورة المائدة آية : ٤٤ .
(٢) سورة المائدة آية : ٤٦ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٦٣ .
(٤) سورة الحديد آية : ٢٥ .
(٥) سورة الشورى آية : ١٣ .

يحمل القواعد الكلية التي تنظم حياة الإنسان ، من خلال شرعة ومنهاج يتفقان مع واقع الإنسان ومستقبله العلمي والكوني والإنساني ، فكان التصديق وكانت الهيمنة ، يقول تعالى ﴿ بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ {٣٧} ﴾ (١). وهذا في حق الرسول الخاتم – صلي الله عليه وسلم – وفي حق رسالته يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ {٣٧} ﴾ (٢) . ويقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

ولما كانت هذه الرسالة هي ختام الرسالات ، ورسولها هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، كان من اللائق بها أن تنال دورا إعلاميا في الزمان والمكان ، يشمل جميع الأمم السابقة ، وقد قام بهذه الدور الرسل والأنبياء السابقون . يقول تعالي : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ {٨١} ﴾ (٤) . ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ ﴾ (٥) . وبذلك أصبح خبر الرسالة الخاتمة حقيقة يقينية لدى الأمم السابقة عموما ، ولدي أهل الكتاب من اليهود والنصارى خصوصا ، وكذلك بين العوالم الأخرى ومنها عالم الجن ، إما علي سبيل التشريف وإما علي سبيل التكليف . يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ من قَبْلِه هُم به يُؤْمِنُونَ {٥٢} وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا به إِنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا من قَبْلِه مُسْلِمِينَ {٥٣} ﴾ (٦) . ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ {٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ من بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا

(١) سورة الصافات آية : ٣٧ .
(٢) سورة يونس آية : ٣٧ .
(٣) سورة المائدة آية : ٤٨ .
(٤) سورة آل عمران أية : ٨١ .
(٥) سورة الصف : آية : ٦ .
(٦) سورة القصص آية : ٥٢ ، ٥٣ .

بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {٣٠} ﴾ (١) . ويقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ {١٩٦} ﴾ (٢) وبهذا البيان والإعلام أصبحت البشرية مهيأة لاستقبال الوحي الإلهي الخاتم الذي يحمل النظم الإلهية التي تتوافق مع الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها .

٢ – ثبات النظم وتطورها :

بعد أن بينا ثبات أساس النظم الشرعية والذي هو الوحي الإلهي نبين الحقائق التي تتصل بالنظم ذاتها من جهة ثباتها وتطورها ، متتبعين ذلك منذ نشأة البشرية ، والمتأمل في رحلة الوحي الإلهي عبر الأجيال والأزمان يجد أن التربية الإلهية للإنسان قد تحققت من خلال أمرين :

الأول : الثوابت التي لا تتطور ولا تتغير ، وهذا فيما يتصل بالعقائد " لأن العقيدة إيمان فشأنها الثبات والاستقرار .... يتفرع عليها شرع عملي يرتبط بهذه الأصول التي تستقر وتثبت وتتولد في نفس المؤمن ولا تهتز أو تتزعزع ، تتناقلها الأجيال وتتوارثها الأعقاب ، وتعرض علي العقول والعلوم الصحيحة ، فلا تجد معها إلا الاقتناع والتسليم ، إلا إذا تدخلت الأهواء وعبثت بها يد البشر " (٣) .

الثاني : الشرائع التي تتغير وتتطور من جيل إلي جيل ومن مكان إلي مكان ، " ومن هنا كان تتبع الإنسانية بالشرائع التي يكمل بعضها بعضا ، ويجبر حديثها ما ينقص قديمها ، حتى تجد الحياة منها مبتغاها ، ويكتمل نضج الإنسانية فتبلغ مراتب القدرة علي إدارة حياتها وتوجيهها من خلال الشريعة الملائمة "(٤) حيث إن الإنسانية قد تدرجت في التعرف علي السنن الكونية ، فكان كل جيل يضم رصيد الأجيال السابقة إلي رصيده العقلي ، فجاءت الشرائع مناسبة لكل جيل ، " – وقد اختلفت شرائع الأنبياء – عليهم السلام – لأسباب ومصالح ، وذلك أن شعائر الله إنما كانت شعائر لمعدات ، وأن المقادير يلاحظ في شرعها حال المكلفين وعاداتهم ، وأن مظان المصالح تختلف باختلاف الأعصار والعادات .... فمن عرف أصل الدين وأسباب اختلاف المناهج لم يكن عنده تغيير ولا تبديل ولذلك نسبت الشرائع إلي أقوامها "(٥) .

(١) سورة الأحقاف آية : ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٦ .
(٣) د. عمارة نجيب : الإنسان في ظل الأديان والمعتقدات القديمة ، المكتبة التوفيق سنة ١٩٧٧ ، ص ٨٨ .
(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٥) أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي : حجة الله البالغة ٨٩/١ .

فالشريعة في المجتمعات السابقة نظام يحمل مناهج ووسائل وأساليب تنظم حياة كل مجتمع تبعا لعلم الله وإرادته وحكمته ، تضيق وتتسع لمصلحة الإنسان والمجتمع ، ولما كان هذا التغير في الشرائع " من لدن الخالق فقد تم بحكمة العالم المحيط الخبير بأسرار النفس الإنسانية ونظم الاجتماع، ودراسة هذا التطور وتتبعه من خلال منهج علمي يدل علي أن صانع هذا التطوير إله قادر عليم محيط خبير "[1]. والأمثلة التطبيقية التي تؤكد ذلك وتبينه كثيرة ، ففي شريعة آدم كانت " محارم الزوجية لا تحرم إلا الأم ولا تمنع زواج الأخ بأخته عند ذاك ، حتى إذا ساعد التكاثر علي تحريم هذا الزواج فإنه لم يساعد علي تحريم زواج العمات والخالات ، فإذا ساعد التكاثر مرة أخرى علي تحريم زواج العمات والخالات ، فإنه لا يساعد فجأة علي تحريم زواج بنات الأخ وبنات الأخت، وهكذا تدرج التشريع الإلهي بلوغا بالإنسانية مراحل التقدم والنضج الفكري تبعا لحاجة الإنسان وظروفها وقدراتها المادية والعقلية حتى وصل بالإنسان إلي أرقي مراحل النضج من خلال أعظم أسلوب للتربية والتعليم والتوجيه "[2].

وفي شريعة موسى – عليه السلام – كان الرجم فقط وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره ، وكان في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط وجاءت شريعتنا بالقصص والدية جميعا، وعلي ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها ، وبالجملة فالأوضاع الخاصة – للإنسان أفرادا وجماعات – التي مهدت وبنيت بها أنواع البر والإرتفاقات هي الشرعة والمنهاج "[3].

وقد وضع الإسلام الأصول الإيمانية العقدية والفكرية التي تتصل بهذا الموضوع ، وذلك من خلال نصوص قرآنية ثابتة . يقول تعالي : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾[4] فقد جعل الله لكل أمة أحكاما تتصل بالنظم التي تنظم صلة الإنسان بالمجتمع ، كما جعل لكل أمة منهاجا يحمل طرق الأداء ووسائل التطبيق حتى تنتقل الشريعة من الميدان النظري إلي الواقع العملي ، فالمنهاج " هو الطريق الواضح "[5] وهذا

(١) د. عمارة نجيب : الإنسان في ظل الأديان ص ٩٣ .

(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة .
(٣) أحمد عبدالرحيم الدهلوي : حجة الله البالغة ١/ ٨٦ وما بعدها .
(٤) سورة المائدة آية : ٤٨
(٥) الرازي : مفاتيح الغيب ، ١٢/١٢ .

المنهاج يرسم صورة حقيقية لأهل التوحيد تغاير وتخالف أهل الشرك ، وذلك في العقائد والمعاملات والأخلاق وبها يبقي الداعي قائماً مناديا ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾[1] .

ومن ثم فكل وحي إلهي لرسول من الرسل جاء بشريعة ومنهاج يحمل من الخصائص والأساليب ما يحقق الهداية والرشاد لمن أرسل إليهم ، وتبعا لذلك تعددت الشرائع والمناهج والكتب المنزلة وكانت هداية هذا الوحي خاصة بمن نزل إليهم . يقول تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ {٣} من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {٤} ﴾[2] وفي الآية إشارة إلي علاقة الوحي بالزمان والمكان من جهة تحقق الهداية به . فهداية التوراة والإنجيل للناس كانت قبل نزول القرآن الكريم ، أما بعد نزوله فالهداية فيه لا تتعداه إلي غيره ، فهو الدستور الجديد الذي يحمل النظم الإلهية.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى : [وأنزل التوراة] أي علي موسى بن عمران [والإنجيل] أي علي عيسى بن مريم – عليهما السلام – من قبل – أي من قبل هذا القرآن ﴿ هدى للناس ﴾أي في زمانهما [3].

وقد أخذ الله العهود والمواثيق علي الأنبياء ببيان هذه الحقيقة لمن أرسلوا إليهم . يقول تعالي : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[4] ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾[5] .ويقول تعالى : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[6] .

وهناك الميثاق العظيم الذي أخذه الله علي الأنبياء والرسل جميعا بشأن الرسالة الخاتمة ، وإليه الإشارة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ {٨١} فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٨٢} ﴾[7]. وفي ظل

(١) سورة الأحقاف آية : ٣١ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٣ ، ٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم – ١ / ٣٤٤ .
(٤) سورة الأعراف آية ٦٩ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٧٤ .
(٦) سورة الصف آية: ٣١ .
(٧) سورة آل عمران آية : ٨١ ، ٨٢ .

هذه الحقائق القرآنية كانت البشرية كلها علي اختلاف أممها علي علم بالشرائع السابقة بالإضافة إلي الشريعة الجديدة لهم مع الحفاظ علي القاسم المشترك بين الجميع وهو أصل الدين .

يقول الإمام الرازي : " وردت آيات دالة علي عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل ، وآيات دالة علي حصول التباين فيها .... وطريق الجمع أن نقول : النوع الأول من الآيات مصروف إلي ما يتعلق بأصول الدين والنوع الثاني مصروف إلي ما يتعلق بفروع الدين "(١) .

ولا شك أن هذا التدرج والتطور يرجع إلي حكمة إلهية ربانية وفطرة إنسانية ، فقد أعطي الله الإنسان ملكة التعلم والتعليم ، وهذه الملكة تتعامل مع الآفاق والأنفس ، وكلما تأمل الإنسان فيها وتفكر كلما تذكر وتعقل واستنبط القوانين والسنن التي تصلح حاله وحياته ، وهو في كل ذلك ينتقل من حال إلي حال ومن مرحلة إلي مرحلة ، وتبعا لذلك جاء الوحي الإلهي بشرائع ونظم تتناسب مع حالة الإنسان في كل مرحلة ، فكان لكل جيل من التشريع والنظم ما يناسبه ، وهكذا كلما زادت علاقة الإنسان بالكون في الاستخلاف والاستعمار والتمكين ، كلما جاءت النظم التي تناسب ذلك ، " ويتضح من تتبع التشريع الإلهي أنه قام علي أسلوب علمي لا ينكر ، هو أسلوب التربية والتعليم والتوجيه بالنظرية وبالتجربة .

أما النظرية فكانت برسالة الرسل والأنبياء وعظتهم وتبليغهم وحي الإله الخالق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالمجادلة بالتي هي أحسن .

وأما التجربة فكانت باحتكاك الرسالة بالعقول والبيئات والظروف الخاصة ، وتفاعل هذا الاحتكاك بالعقول والبيئات والظروف وما ينتج من العائد الاجتماعي والثقافي والنفسي والتاريخي المادي والمعنوي فتنقل هذه التجربة ونتائجها إلي جيل آخر ومعه رسالة أخرى تحتك بمجتمع جديد يفترض أنه استفاد من تجربة السابقين ، وتجري عملية التربية والتعليم والتوجيه بهذا الأسلوب العلمي جيلا بعد جيل ، حتى يجيء الجيل الذي تتحصل له كل التجارب ويمكنه أن يستفيد منها فيما يمكن أن يجد له من أحداث ، ويمكنه أيضا أن ينقل هذه التجارب ونتائجها إلي

(١) مفاتيح الغيب ١٢/١٢ .

الجيل الذي بعده دون حاجة إلي رسالة جديدة فكانت الرسالة الخاتمة" (١) .

وهكذا جاء الوحي الإلهي في الرسالات السابقة مراعيا سنة التدرج في التشريعات التي تنظم حياة الإنسان منذ وجوده علي الأرض ، حتى جاءت الرسالة الخاتمة ، ومن خلال ما سبق عرضه تبرز الحقائق العلمية التالية :

- الرسالات التي سبقت الرسالة الخاتمة كانت خاصة ، لأن التفاعل الناتج عن الاحتكاك قد يؤدي إلي عملية تدمير وإبادة أو شبههما ، فاكتفي العالم الأكبر - رحمة منه بخلقه - بعينات من الشعوب أو الأمم ، تكفي التجربة معها للحصول علي القانون العلمي المطلوب لتعليم وتربية من يلي هذه العينة أو تلك ، أو يعاصرها ، كاكتفاء العقلاء بالنظر إلي من صعقه التيار الكهربائي بالتعلم والعلم بخطر التيار والبعد عن ممارسة نفس العمل الذي أدي إلي هلاك من وقع تحت التجربة .

- كان كل نبي ورسول يكلف بالتبليغ يذكر قومه بالتجارب السابقة مع النظرية (الرسالة) التي جاء بها حتى جاء محمد - صلي الله عليه وسلم - تجارب الأنبياء والرسل أجمعين "(٢) .

- جاء الوحي السابق لنزول القرآن الكريم لتحقيق هداية الإنسان بعيدا عن الإعجاز أو التحدي بالكتب التي حملت هذا الوحي ، " واعتمدت الرسالات السابقة لرسالة الإسلام علي المعجزات المادية الحسية لأنه الطريق الوحيد لإثبات أنها وحي إلهي، حيث لم يبلغ العقل الإنساني الاجتماعي مرتبة الكمال، وشأن العقل الذي لم يبلغ هذه المرتبة ، أن لا يقتنع بغير ما يعجزه ، ولهذا كانت المعجزات من جنس ما يبرع الإنسان فيه مبالغة في تحقيق الإعجاز"(٣)

- أن حفظ الكتب التي حملت هذا الوحي كان متروكا للبشر ، لأنها كانت تعالج مجتمعات في أزمنة محددة ، يقول تعالى : ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾(٤) .

فالله - عز وجل - يخبر أنه استحفظ بني إسرائيل التوراة فحرفوها ، فلما وكل إليهم حفظها ضيعوها "(٥) .

(١) د. عمارة نجيب : الإنسان في ظل الأديان ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ٩٥ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر : ونفس الصفحة .
(٤) سورة المائدة آية : ٤٤ .
(٥) القشيري : لطائف الإشارات ١ /٤٢٥ .

- مصدر الوحي واحد وهو الله . يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ {٥١} ﴾ (١).

وهكذا فالوحي الصادق يصدق بعضه بعضا ، فأصوله واحدة ، وقضاياه الكلية واحدة . يقول تعالى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (٢) ويقول تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) .

فالسابق يبشر باللاحق ، واللاحق يصدق السابق ، وهذا هو منهج الوحي الإلهي، فالرسالة الجديدة امتداد للرسالات السابقة ، والرسالة الخاتمة تجمع خصائص كل الرسالات السابقة وتأتي بما يناسب الإنسان والعصر الذي يعيش فيه، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني "(٤). وكل كتاب يخرج به أتباعه عن هذا المنهج فقد أصيب بالتحريف والتبليغ والتبديل .

ولما شاءت إرادة الله أن يجمع البشرية علي كتاب واحد ورسول واحد ، وذلك بعد أن أصبحت مهيأة لذلك اجتماعيا واقتصاديا وعلميا أرسل رسوله محمدا - صلي الله عليه وسلم - بالقرآن الكريم الذي يحمل آخر وحي إلهي لتنظيم حياة الإنسان ومجتمعه في كل مكان وزمان ، وبنزول القرآن انتهت المرحلية في الشرائع والتعدد في الرسالات ، فالعالم قرية صغيرة تشترك في المصالح والخصائص .

٣ - مقومات التطور في شريعة سيدنا محمد - صلي الله عليه وسلم - الخاتمة.

جاءت النظم الإسلامية في رسالة سيدنا محمد - صلي الله عليه وسلم - تحمل من المقومات والخصائص ما يجعلها آخر الرسالات وختامها إلي أن تقوم الساعة ، فليس بعده نبي أو رسول ، وليس بعد كتابه القرآن كتاب آخر، فقد حفظه الله من التحريف والتبديل ، يقول تعالي ﴿ إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {٩} ﴾ (٥) ومفهوم الحفظ

(١) سورة الشورى آية : ٥١ .
(٢) سورة الصف آية : ٦ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٣ .
(٤) رواه أحمد عن ابن عباس ، وابن حبان ، بلفظ " لو كان موسى حيا ماوسعه إلا اتباعي " عن جابر . كنز العمال ، كتاب الإيمان والإسلام ، قسم الأقوال . دار الكتب العلمية طبعة أولي ١٩٩٨ ، ١١٣/١ .
(٥) سورة الحجر آية : ٩ .

الإلهي للقرآن عام وشامل يستعرض الزمان والمكان والأحداث والمتغيرات ، فالقرآن الكريم كما قال الله تعالي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ {٤٢} ﴾ (١)

يقول الإمام الفخري الرازي " لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ ، فإنه لا كتاب إلا قد دخله التصحيف والتحريف والتغيير ، إما في الكثير منه أو في القليل ، وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة علي إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات "(٢)

ويضاف إلي حفظ الله للقرآن الكريم إعجازه المتواصل العطاء والباقي في كل زمان ومكان . يقول تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ {٣٤} ﴾ (٣) .

وهذا التحدي بالإعجاز القرآني معروض علي الإنس والجن معاً . يقول تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً {٨٨} ﴾ (٤)

(١) سورة فصلت الآية : ٤٢ .
(٢) مفاتيح الغيب ١٦١/١٩ .
(٣) سورة الطور آية : ٣٤ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

وعلي هذا فإعجاز القرآن للإنس والجن يعني أنه فوق قدرتهم أن يأتوا بمثله أو ببعضه أو حتى يحاكوه ، فقد فاتهم ذلك وسبقهم القرآن فلم ولن يدركوه ، إذ هو كتاب الله الخالق فيه كلامه، والله هو القوى وهم أهل الضعف وشأنهم القصور والتقصير ، فليس لهم قدرة علي ذلك ، فالفارق بين المخلوق والخالق في النقل والعقل ثابت .

وقد بينت السنة النبوية جانبا من إعجاز القرآن الكريم ، وذلك في قول الرسول - صلي الله عليه وسلم - ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما علي مثله آمن البشر ، وإنما الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة (٥). وهنا تظهر حقيقة الإعجاز القرآني فهو معجزة معنوية لا مادية،وآية عقلية لا حسية"(٦).

وهذا الإعجاز يبقي داعيا إلي رسالة سيدنا محمد - صلي الله عليه وسلم - وإلي النظم التي جاء بها القرآن الكريم ،

(٥) الحديث في صحيح البخاري : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - كتاب فضائل القرآن . باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل . فتحي الباري بشرح صحيح البخاري راجعة طه عبدالرؤوف سعد وآخرون . مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ٦/١٩ .
(٦) د. يوسف القرضاوي ، كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، دار الشروق ، ط ثالثة ٢٠٠٠ ، ص ٢٠ .

وذلك من خلال آيات ودلائل الإعجاز التي تظهر تباعا في الأفاق والأنفس ، فكلما جدد العالم الباحث أبحاثه واكتشافاته في الكون والنفس كلما وجد في القرآن الكريم ما يؤكد أسبقية القرآن لذلك ، وهذا يشهد للقرآن الكريم ولرسالة سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – أنها الخاتمة وأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[1] .

ويضاف إلي الإعجاز العام للقرآن الكريم الإعجاز النظمي ، فقد كانت صياغة النظم في رسالات الأنبياء والرسل السابقين موافقة لأقوامهم ، ومن ثم لم تكن هي المعجزة ، بينما جاءت النظم الإسلامية في شريعة سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – هي أصل المعجزة ، والمتأمل في منظومة النظم الإسلامية من خلال مصدرها الأول القرآن الكريم ، يرى أن النظم هي بيت القصيد في الإعجاز، فحروف القرآن وكلماته وآياته أنزلها الله لتؤسس النظام العقدي والتشريعي والأخلاقي والاجتماعي ، ومن خلالها تبني أنظمة الحياة المختلفة وفق المنهج الإلهي والقانون الرباني .

واللسان القرآني العربي الذي تتألف منه النظم الإسلامية علي اختلاف مجالاتها يحمل من " الإعجاز ما لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره ، إن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق ، ذلك ، القرآن للعالمين ... أي الدنيا كلها لا يقتصر علي أمة بعينها وإنما هو الدين الكامل لكل البشر "[2].

ومن ثم كانت نظمه عامة وشاملة وكاملة وباقية . يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً {١٠٩}﴾[3] . وفي الحديث النبوي عن القرآن . قوله صلي الله عليه وسلم :ولا تنقضي عجائبه "[4].

وبإعجاز القرآن الكريم جاءت نظم الإسلام معجزة لكل النظم البشرية ، وبيان ذلك أن الباحث في النظم الإسلامية يرى القوانين والمبادئ والأحكام مرتبطة بالعقيدة فكرا وقلبا

(١) سورة آل عمران آية : ١٩ .

(٢) أنظر الشيخ محمد متولي الشعراوى : معجزة القرآن – كتاب اليوم ١٩٨١ .ص ٢٣ ؛

(٣) سورة الكهف آية : ١٠٩ .

(٤) جزء من حديث رواه الترمذي في سننه . كتاب فضائل القرآن . باب ما جاء في فضل القرآن . رقم ٢٩٠٦. سنن الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر . المكتبة الثقافية ٥ / ١٥٨ .

وبالأخلاق سلوكا وتطبيقا ، تحمل في طياتها حقائق علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الصحة بوجه عام والعلوم الاقتصادية والعسكرية، في الوقت الذي لم يدرك العلم الحديث هذا التداخل والترابط بين العلوم والنظم إلا مؤخرا ، ولكن أني لهم أن يجمعوا ذلك في نص واحد يملك خصائص النص القرآني المعجز ، مع أنه ضالتهم المنشودة التي يبحثون عنها.

والمتأمل في نظم القرآن الكريم يجد أنها تتوافق وتنسجم مع الإنسان في كل عصر ومصر وتغطي كل مظاهر النشاط والتجديد في جميع المجالات،ويرجع هذا إلي.

– النصوص الثوابت(الدستور) .

تقوم الدساتير البشرية علي نصوص وضعت من خلال أفراد فوض لهم المجتمع ذلك ، ولكن هذه الدساتير كثيرة التغيير والتبديل ، وذلك لمعالجة القصور وتحقيق المصلحة من وجة النظر البشرية . أما النظم الإسلامية وأحكامها فتقوم علي نصوص صياغتها ربانية تتمتع بالثبات والعموم والشمولية ، ضمن الله لها الحفظ وأضفي عليها تاج الإعجاز والهيمنة .

وهذه النصوص ثوابت قواطع في مجالها جوامع ، قولها فصل سواء في العقيدة أو في العبادة أو في المعاملات السياسية والاجتماعية أو في الأخلاق أو في الكونيات والإنسانيات ، وصياغتها في التوجيه والتعليم تناسب المقام ، وفي الأحكام والقوانين تتفق مع الحال ، تجمع بين أركان الإسلام والإيمان والإحسان ، وتراعي الجوانب الإنسانية فتتعامل مع الخصائص النفسية بما يحقق لها صالحها.

وهذه النصوص ميزانها الحق ، بمعني أنها ثابته لأنها بقدر إلهي وتقدير رباني ، فمثلا النصوص القواطع في الصلاة تحدد عددها وأوقاتها وكيفيتها وآدابها وغير ذلك ، والزكاة كذلك ، والعقوبات المختلفة مفصلة معلومة الوصف والحقيقة ، مقدرة العدد في كل عقوبة من العقوبات ، وهكذا كل شيء في القرآن الكريم ، ولا يتأتي ذلك إلا لعالم خبير حكيم عدل فعال لما يريد قوي قادر محيط . وهذا الجانب يقول عنه بعض الباحثين إنه الجانب الدستوري في الشريعة وهو عبارة : " عن نصوص قاطعة سواء أكانت في بيان أصول العقائد أو ما يتصل بأسس تنظيم الحياة البشرية في كلياتها وبعض جزئياتها المهمة "[1] .

ويقول عنها أحد الباحثين : " الدستور القرآني هو تلك الأصول العامة

(١) د. محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية. كتاب الأمة طبعة ثانية ١٤٠٤ هـ ص ٢٤ .

ومتجددة، كان الإنسان بحاجة إلي نظم تصاحبه وترسم له المنهج في كل خطوة يقطعها نحو الاكتشافات ومعرفة السنن والقوانين بأسلوب لا يعوق حركة حياته ولا يحرمه من الاستفادة بعلومه ومعارفه ، ولم يكن حل هذه القضية سهلا ، فحياة الإنسان فيها الجديد وإليه الإشارة لقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {٨}﴾ [١] .

وفيها المتشابه والمتشابك ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلي نظم تجمع في داخلها القدرة علي تنظيم حياة الإنسان تنظيما كاملا ، تضع القواعد والأصول لما هو ثابت ، وفي الوقت ذاته يعالج المستجدات والمتغيرات ، ولم يكن ذلك إلا في النظم الإسلامية ، حيث تستوعب قواعدها الشرعية الثوابت والمتغيرات ، فقد أكمل الله الدين الإسلامي " بإنزال كل ما يحتاج إليه من أصل وفرع ، نصاً علي البعض وبياناً لطرق القياس في الباقي وذلك بياناً لجميع الأحكام "[٢] .

وتحقيقا لذلك فقد جمعت النظم الإسلامية بين عنصري الثبات والخلود وعنصري المرونة والتطور .

" أما الثبات ففي الأصول والكليات ، وأما المرونة ففي الفروع والجزئيات ، الثبات علي القيم الإسلامية والأخلاقية ، والمرونة في الشؤون الدنيوية العلمية ، الثبات علي الأهداف والغايات ،والمرونة في الوسائل والأساليب " [٣].

إن الثوابت محكومة بالأحكام التفصيلية لأنها جاءت لتبقي ، والمتغيرات محكومة بالكليات والقواعد الأساسية ..... لتتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان ، وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية لي ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلي آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار ... الأحكام التفصيلية جاءت لتبقي كما هي ، والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار

(١) سورة النحل آية : ٨ .
(٢) البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتب العلمية ، طبعة أولي ١٩٩٥، ٣٩٢/٢.
(٣) د. يوسف القرضاوي . الخصائص العامة للإسلام ، ٢٠٤ .

الذي تنموا في داخله الحياة البشرية إلي آخر الزمان [١]. وتتجلى مرونة النظم الإسلامية في المصادر الاجتهادية التي أخذ بها فقهاء الأمة ما بين موسع ومضيق ومقل ومكثر ، مثل : الإجماع والقياس والاستحسان ، والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة ، وشرع من قبلنا وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد،وطرائق الاستنباط"[٢].

– البيان النبوي .

تملك النظم الشرعية الإسلامية نموذجا نظريا وتطبيقيا من المبلغ لها سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – وتلك ميزة وخصيصة لا تتوافر عند غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم .

وهذا البيان النبوي أقسام :

أحدها : بيان نفس الوحي بظهوره علي لسانه بعد أن كان خفيا .

الثاني : بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلي ذلك .

الثالث : بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله .

الرابع : بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن ، فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

الخامس : بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنا ، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق ، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق .

السادس : بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة علي عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع : بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسي به .

الثامن : بيانه جواز الشيء بإقراره لهم علي فعله وهو يشاهده أو يعلمهم يفعلونه .

التاسع :بيانه إباحة الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقا.

العاشر : أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف فيحيل الرب – سبحانه وتعالى – علي رسوله بيانها ، كقوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلك ﴾ [٣] فالحل موقوف علي

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٨٤٢/٢ .
(٢) د. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ، ٢٠٨ .
(٣) سورة النساء آية : ٢٤ .

ومتجددة، كان الإنسان بحاجة إلي نظم تصاحبه وترسم له المنهج في كل خطوة يقطعها نحو الاكتشافات ومعرفة السنن والقوانين بأسلوب لا يعوق حركة حياته ولا يحرمه من الاستفادة بعلومه ومعارفه ، ولم يكن حل هذه القضية سهلا ، فحياة الإنسان فيها الجديد وإليه الإشارة لقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {٨}﴾ (١) .

وفيها المتشابه والمتشابك ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلي نظم تجمع في داخلها القدرة علي تنظيم حياة الإنسان تنظيما كاملا ، تضع القواعد والأصول لما هو ثابت ، وفي الوقت ذاته يعالج المستجدات والمتغيرات ، ولم يكن ذلك إلا في النظم الإسلامية ، حيث تستوعب قواعدها الشرعية الثوابت والمتغيرات ، فقد أكمل الله الدين الإسلامي " بإنزال كل ما يحتاج إليه من أصل وفرع ، نصاً علي البعض وبياناً لطرق القياس في الباقي وذلك بياناً لجميع الأحكام "(٢) .

وتحقيقا لذلك فقد جمعت النظم الإسلامية بين عنصري الثبات والخلود وعنصري المرونة والتطور .

" أما الثبات ففي الأصول والكليات ، وأما المرونة ففي الفروع والجزئيات ، الثبات علي القيم الإسلامية والأخلاقية ، والمرونة في الشؤون الدنيوية العلمية ، الثبات علي الأهداف والغايات ،والمرونة في الوسائل والأساليب " (٣).

إن الثوابت محكومة بالأحكام التفصيلية لأنها جاءت لتبقي ، والمتغيرات محكومة بالكليات والقواعد الأساسية ..... لتتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان ، وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية لي ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلي آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار ... الأحكام التفصيلية جاءت لتبقي كما هي ، والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار

(١) سورة النحل آية : ٨ .
(٢) البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتب العلمية ، طبعة أولي ١٩٩٥، ٣٩٢/٢.

(٣) د. يوسف القرضاوي . الخصائص العامة للإسلام ، ٢٠٤ .

الذي تنموا في داخله الحياة البشرية إلي آخر الزمان (١). وتتجلى مرونة النظم الإسلامية في المصادر الاجتهادية التي أخذ بها فقهاء الأمة ما بين موسع ومضيق ومقل ومكثر ، مثل : الإجماع والقياس والاستحسان ، والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة ، وشرع من قبلنا وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد،وطرائق الاستنباط"(٢).

– البيان النبوي .

تملك النظم الشرعية الإسلامية نموذجا نظريا وتطبيقيا من المبلغ لها سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – وتلك ميزة وخصيصة لا تتوافر عند غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم .

وهذا البيان النبوي أقسام :

أحدها : بيان نفس الوحي بظهوره علي لسانه بعد أن كان خفيا .

الثاني : بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلي ذلك .

الثالث : بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله .

الرابع : بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن ، فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

الخامس : بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنا ، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق ، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق .

السادس : بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة علي عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع : بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسي به .

الثامن : بيانه جواز الشيء بإقراره لهم علي فعله وهو يشاهده أو يعلمهم يفعلونه .

التاسع :بيانه إباحة الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقا.

العاشر : أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف فيحيل الرب – سبحانه وتعالى – علي رسوله بيانها ، كقوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلك ﴾ (٣) فالحل موقوف علي

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٨٤٢/٢ .
(٢) د. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ، ٢٠٨ .

(٣) سورة النساء آية : ٢٤ .

شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل"[١]. وهذا البيان النبوي في العلاقة بين السنة والقرآن يشمل تفصيل المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق[٢].

وهكذا فالنظم الإسلامية تملك ميزانا ومقياسا ونموذجاً عمليا في كل مجالات الحياة الإنسانية والكونية، قام به الصادق الأمين من لا ينطق عن الهوى رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ومن ثم فهو القدوة وهو الأسوة وهو صاحب الهدي والهدي وهو النور، وهذا النموذج النبوي في الأداء تقاس عليه كل الأعمال لتنال إشارة القبول والصحة، ويرجع إليه عند الاختلاف. يقول تعالى: ﴿ولو ردوه إلي الرسول وإلي أولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[٣] ويقول رسول الله – صلي الله عليه وسلم – "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[٤].

٤ – أقوال واعترافات :

تمام النظم وكمالها نعمة ربانية اختص الله بها أمة سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – وكان هذا التمام والشمول مسار عجب من أهل الكتاب وغيرهم، وقد أشار إلي هذه الحقيقة أقوال أهل الكتاب وغيرهم، وجاءت علي لسان الباحثين، من ذلك ما جاء عن موقف اليهود من قول الله – تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[٥] حيث "قالت "اليهود لعمر: إنكم تقرءون أية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً، فقال عمر: [إني لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله– صلي الله عليه وسلم – حين أنزلت يوم عرفة وإنا والله بعرفة "[٦].

وجاء في إنجيل[٧] يوحنا علي لسان المسيح في حديثه عن سيدنا

---

(١) ابن القيم الجوزية :إعلام الموقعين عن رب العالمين : راجعة طه عبدالرؤوف سعد، الكليات الأزهرية ١٩٦٨.

(٢) الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام بتصرف ١ / ١٥٩ .

(٣) سورة النساء آية : ٨٣ .

(٤) رواة البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول رقم ٧٣٥٠، ٢٨ / ص ٨٥ . ورواه مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه .

منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول، كتاب الإسلام والإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ١/ ٣٣ .

(٥) سورة المائدة آية : ٣ .

(٦) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله : [اليوم أكملت لكم دينكم] ابن حجر فتح الباري ١٣٩/١٧ ورواه مسلم في كتاب التفسير . النووي شرح مسلم ١٨ / ١٥٣ .

(٧) تنسب الأناجيل إلي كاتبيها وليس إلي المسيح لأنها روايات وحكايات يصور فيها كل كاتب الأمور من وجهة نظره، وهذا في اعتقاد المسيحيين، أما القرآن الكريم فيقرر أن الله أنزل علي عيسى بن مريم إنجيلا واحدا، ولما ضاع هذا

محمد – صلي الله عليه وسلم – ورسالته " وإنما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلي الحق جميعه، لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية "[١] وهذا تصريح من المسيح – عليه السلام– أن رسول الله محمداً – صلي الله عليه وسلم – " يدعو إلي الحق جميعه لأنه أوتي الشريعة كاملة غير منقوصة خالدة لكل زمان ولكمالها كانت هي الخالدة "[٢].

وهذا ما يقرره أساطين الفقه وعباقرة القانون في العالم عن مرونة النظم الإسلامية وتطورها.

يقول الدكتور" إيزكو إنساباتو " : " إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً.

ويقول الدكتور " هوكنج " : " إن في نظام الإسلام استعدادا داخليا للنمو، وإني أشعر بأني علي حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة علي جميع المبادئ اللازمة للنهوض "[٣].

وفي مؤتمر القانون الدولي المقارن في لاهاي الهولندية عام ١٩٣٧ قرر ما يلي:

اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام.

اعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور.

اعتبار التشريع الإسلامي قائما بذاته وليس مأخوذا من غيره.

كما أصدر المجمع الدولي للحقوق المقارنة في كلية الحقوق بجامعة باريس عام ١٩٥١ قرارا جاء فيه :

إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقيقة تشريعيه لا يجاري فيها.

إن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوي علي ثروة من المفاهيم والأصول الحقوقية هي مناط الإعجاب وبها يتمكن الفقه الإسلامي أن يستوعب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجياتها[٤].

ولا يبقي إلا أن نقرر ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ {١٤}﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٦].

الإنجيل كتب المسيحيون كل هذه الأناجيل البشرية .

(١) يوحنا : إصحاح ١٦ / ١٣ .

(٢) د. خليفة العسال، معالم الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، طبعة ثانية ٢٠٠١ ص ٦٠ .

(٣) عبدالله علوان، محاضرة في الشريعة الإسلامية وفقهها ومصادرها، دار السلام طبعة أولي ١٩٩٠.ص١٩.

(٤) أنور الجندي، معلمة الإسلام ١، ٥٨٢ .

(٥) سورة النمل آية : ١٤ .

(٦) سورة الصف آية : ٩ .

ثانياً : النظم الوضعية

عندما تكون النظم بمعزل عن الوحي فإن المجتمع يواجه بمشكلات حضارية تدور حول السؤال عن التشريع أو الدستور . والسبب في ذلك واضح " فالمشكلة متشعبة الأطراف متعددة الجوانب ، تتصل بالقواعد التي تنطلق منها هذه النظم التي صاحبت البشرية في طورها الأول ، وبالقواعد التي جاءت بعد ذلك ، وتتصل كذلك بالعلاقة بينهما والتصورات التي تتصل بالأسس التي يقوم عليها التشريع ، والعناصر المكونة لها وكلها قضايا قد احتدم حولها النقاش ولا يزال .

١ – في القديم .

يرى الباحثون في علم الاجتماع أن الإنسان بدأ حياته بدون دستور مدون يمثل المصادر التي تحكم نظمه ، وبمرور الأزمنة بدأ الإنسان ينظم حياته ويقيم أحكامه تبعاً لما يأتي :

– العادات والتقاليد الشعبية .

من العادات والتقاليد التي يقوم بها الإنسان ويتعارف عليها الناس في المجتمع تكونت مصادر النظم الوضعية .

يقول ديفيز : " إن النظم مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين تتداخل فيما بينها حول وظيفة أو أكثر ، مكونة أجزاء من البناء الاجتماعي "[١] .

أما سمنر فيقول : " وتنشأ النظم عادة عن العادات الشعبية وتنمو وتتطور في صورة أعراف وتنضج عندما تصبح القواعد والأفعال أكثر نوعية وتخصصاً ، وعندئذ يترسخ البناء ويتوطد ويتجه نحو الاكتمال " [٢].

وعلي هذا فالعادات الشعبية والأعراف هي أصل مصادر النظم الوضعية ، صنعها الإنسان شيئا فشيئا ، وأخذت تنمو وتتطور مع الإنسان من جيل إلي جيل.

– عقل الجماعة .

ترجع العادات الشعبية والأعراف إلي ما يقره المجتمع ويرتضيه أفراده " فالنظام الاجتماعي يشير إلي القواعد والأوضاع والقوالب ، التي تشكل دستور المجتمع والذي ينتظم في مجموعة من القيم والأحكام التي ارتضاها عقل الجماعة والتي تنظمه حياة الأفراد "[٣] .

وتبعا لهذا التصور فالنظم الوضعية ترجع إلي عقل الجماعة ، فهي من صنع

(١) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٥ .
(٢) المصدر السابق ٢٤٤ .
(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان ، أسس علم الاجتماع ، ١٦٧ .

الأفراد وتخضع لتصوراتهم وأهوائهم ، وهذا – عند علماء الاجتماع – ما يضفي علي النظم مشروعيتها ، " ويقصد بالنظم المشروعة ، تلك النظم التي أقرها المجتمع ووافق عليها كأساس للحياة الاجتماعية "[١] .

يقول ادوارد كبيرا : " إن القوانين في الأزمنة القديمة لم يكن قد ابتكرها أو تخيلها شخص واحد ثم فرضت علي الناس فرضاً ، فالحقيقة أنها لا يمكن أن يصفها شخص واحد حتى يومنا هذا"[٢]، ومن أمثلة النظم التي صدرت عن هذه المصادر البشرية ما يعرف بشريعة أو مدونة حمورابي(١٧٢٨– ١٦٨٦ق. م) وهذه المدونة – أحكام الاستقامة التي وضعها حمورابي الملك العظيم – نظمت في دقة وإحكام المدن في بابل"[٣].

– الطبيعة .

تمثل الطبيعة في بعض الحضارات القديمة مصدرا للنظم الوضعية ، ويأتى اليونانيون في مقدمة هؤلاء .

يقول ول ديورانت : اليونان كانوا يحبون العقل بقدر ما يحبون الشكل ، ولذلك كانوا جريئين في سعيهم إلي تفسير الطبيعة علي أسس مستمدة من الطبيعة نفسها ، ولقد كان تحرير العلم من قيود الدين ، وتطور البحث العلمي تطورا مستقلا عن كل ما عداه ، كان هذا التحرر والتطور مظهرين من مغامرات العقلية اليونانية الجامحة "[٤] وقد ترك هذا المصدر أثره في الفكر اليوناني الإغريقي وكانت أهم مظاهره :

. الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس .

. قلة الدين والخشوع .

. شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

. النزعة الوطنية "[٥] .

وقد أخذ الرومان عن اليونان هذا المنهج وتشبثوا بهذا المصدر الطبيعي الذي يجعل من الطبيعة وسننها مصدرا للنظم وتوسعوا فيه ، وأودعوا هذا الفكر قوينهم وأحكامهم ورتبوا علي ذلك نظمهم ، وخير مثال علي ذلك ما جاء في مدونة القانون الروماني ، التي وضعتها لجنة العشرة موظفين التشريعية في عام

(١) المصدر السابق ، ١٨٨ .
(٢) إدوارد كبيرا : كبوا علي الطين ، ترجمة د. محمود حسين الأمين ، مراجعة علي خليل ، مكتبة الجودي ، بغداد ، ١٩٩٢ ، ص ٩٢ .
(٣) و. ج . ديرج : تراث العالم القديم ، ترجمة زكي سوس ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٩ .
(٤) قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأسرة ٨/٤ ص ٢٠٩ .
(٥) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٩٩٤ ، ١٤٢.

(٤٥١ – ٤٥٠ ق.م) ، أول قانون مكتوب في روما . وتمثل هذه المرونة منتخبات عن العادة المعترف بها فسرتها وصاغتها تقاليد ثابته لطبقة علماء من محامين محترفين "[١] .

يقول كرين برنتن : كان القانون الروماني ثمرة أجيال من التفكير المنطقي الصارم ، وأهم من ذلك أن رجال القانون لم تغب عنهم قط فكرة المثل الأعلي ، وفكرة القانون " كما ينبغي أن يكون وأعني بإيجاز فكرة العدالة ، ولكنهم لم يستطيعوا في العالم الروماني المعقد الذي جاء في عهد متأخر أن يحتفظوا بالعقيدة الساذجة القديمة بأن الآلهة قد أوحوا مباشرة بقانون العدالة ، ولما كانوا قوما عمليين ، معقولين ، تعودوا حمل المسئولية ، فقد كان لابد لهم من الإيمان بالعدالة ، ولم يكن بوسعهم أن ينظروا إلي العدالة كفكرة نبيلة ، ولكنها فكرة مجردة غير واقعية ، أو أن المرء يستطيع أن ينصرف عنها ، أو أن الحق هو القوة ، إن ما فعلوه هو أنهم وضعوا الطبيعة مكان الألهة ، اخترعوا فكرة القانون الطبيعي "[٢] .

(١) و . ج . دي بورج : تراث العالم القديم ٢٥٥ وما بعدها . .

(٢) أفكار ورجال قصة الفكر الغربي : ترجمة محمود محمود ، الإنجلو المصرية ، ١٩٦٥ ، ص ١٦٨ .

وقد ترك هذا المصدر بصمات واضحة علي النظم وعلى النفسية الرومانية ، يعرب عنها " إيمان بالمحسوس وغلو في تقدير الحياة وشك في دين ، وضعف في يقين ، واضطراب في العقيدة واستخفاف بالنظام الديني وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها وحب مفرط للوطن ، زد علي ذلك كله اعتدادا بالقوة واحتراما زائدا لها يبلغ العبادة والتقديس "[٣] .

٢ – المصادر الحديثة .

بعيدا عن الوحي الإلهي والنظم الإسلامية لا يقف الإنسان عند مصدر ثابت يستقي منه نظمه، فأخذ يبدل ويغير مصادره تبعا لما يراه محققا لمصالحه الشخصية وشطحاته الفكرية ، مرة بإحياء القديم تحت مسميات جديدة ، وأخرى بمخالفته ، وثالثة بالجمع بينهما ، فتعددت المذاهب وتنوعت الآراء ، وتشعبت السبل وأصبح الإنسان معلقا في الهواء ، لا يعرف الاستقرار ولا يتمتع بالأمن ، يدفعه الخوف ويحركه الطمع ويحاصره اليأس ويقوده الاضطراب والضنك ، ومن يتتبع صورة النظم الحديثة الوضعية يرى ذلك رأي العين .

(٣) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم ، ١٤٦ .

– العقلانية .

تمثل العقلانية في الفكر المادي تيارا مواجها للكنيسة ، وذلك عندما عجزت عن التفسير الصحيح للحقائق الإنسانية والكونية ، فقد لعبت الأيدى بالمصادر التي تقوم عليها نظم الكنيسة ، وقد أدي هذا إلي جعل العقل مصدر التنظيم لحياة الإنسان " إن العقلي يميل إلي القول بأن المعقول هو الطبيعي ، وأنه ليس هناك ما فوق الطبيعي ، وليس في نظامه مكان للإله الشخصي ، وإذا فالمذهب العقلي يميل إلي أن يبعد الله وما ليس بالطبيعي من الكون ، ولا يبقي المذهب إلا علي الطبيعي ، الذي يعتقد معتنقوه أن من الممكن فهمه في النهاية "[١] .

يقول : " برنتون " فالمذهب العقلي يتجه نحو إزالة الله وقانون الطبيعة من الكون .. فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون "[٢] .

وقد ترك هذا أثره في صياغة الفكر والنظم الوضعية في المجتمعات التي ترعي هذا الفكر وتأخذ به ، وهذا المنهج قديم حديث مادي علماني .

(١) كرين برنتن : أفكار ورجال ، ٤١٩ .

(٢) برنتون :منشأ الفكر الحديث ، ترجمة عبدالرحمن مراد ، ١٠٣ نقلا عن محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، در الشروق الطبعة السادسة ، سنة ١٩٩٢ ص ٥١٧ .

– الطبيعة .

تشعبت الطرق بالإنسان في غيبة الوحي الإلهي ، وأخذ ينتقل من مصدر إلي مصدر يستمد منه معارفه ويأخذ منه أفكاره وينظم من خلاله مجالات حياته ، فكانت الطبيعة هي المصدر الذي أسلم له هذا الإنسان قياده .

يقول محمد قطب " ودار الزمن دورة أخرى فانتقلت أوروبا – فيما يقال – من سيادة العقل إلي سيادة الطبيعة ، حين كشف العلم مزيدا من أسرار الكون ، واقتنع المفكرون أن الأصل الذي ينبغي الرجوع إليه هو الطبيعة لأنها هي التي تنقش في العقل ما يتولد فيه من أفكار ، فليس هو الوحي الرباني ، ولا العقل الذي لا ينشئ شيئا من عنده إنما هي الطبيعة "[٣] .

وقد وجدت هذه النزعة تدعيما من فلاسفة الغرب الذين قالوا بالمذاهب الوضعية والمادية والعلمانية ، وكل هذه المذاهب ترى أن المادة هي الوجود الأصلي للأشياء وأبرز قواعد النظرية المادية :

(٣) المصدر السابق ، ٥٢٤ .

. لا وجود غير المادة وأن قوام العالم عنصر هو المادة .

. سيطرة القوانين واستمرارها .

. إنكار الغائية .

. إنكار الغيب " عالم ما وراء الطبيعة" (الميتافيزيقا) "[١] .

يقول المستشرق اربري عن العلمانية : " إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والموضوعية كلها أشكال اللادينية ، واللادينية صفة مميزة لأوربا وأمريكا . وفي المعجم الدولي الثالث الجديد ، هي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس علي فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية علي اعتبارات الحياة المعاصرة ، والتضامن الاجتماعي دون النظر إلي الدين "[٢] .

وقد أنتجت هذه الأفكار الوضعية البشرية كثيرا من المذاهب والنظم التي تتعدد مسمياتها وتختلف برامجها ولكنها تتحد في مقوماتها وغاياتها ، وهذه المذاهب قد يطلق عليها المادية أو العلمية أو العقلية أو العلمانية أو الوجودية أو الديمقراطية أو الشيوعية أو الماركسية أو التنوير أو الاشتراكية ، إلي غير ذلك من المسميات التي تفصل الدين عن كل شيء وتلغيه من واقع الحياة .

٣ – بين القديم والحديث .

النظم الوضعية التي خضع لها الإنسان في القديم والحديث تشترك في الكثير من الخصائص وتلتقي عند نقطة واحدة ولا تختلف إلا في المناقشة والعرض وإعادة الصياغة والتسمية ، وفي الكثير قد تتفق ، وأحيانا تكون المصادر مفهومة وقد تكون غير ذلك ، وبالتأمل نراها تشترك في البشرية والوضعية ، وكذلك المادية ، وكذلك النزعة العنصرية ، فكل مذهب منها كان يقابل بآخر يعارضه وبثالث ينقضه ، وخصوصا في المجالات الإنسانية ، كما أنها متناقضة في داخلها ومتغايرة في الشيء الواحد ، وذلك لأنها ترجع في اعتبارها إلي عقل الجماعة ، ورأي الجماعة يختلف من مجتمع إلي مجتمع ، والمجتمع الواحد قد يختلف فيه عقل جيل عن جيل ، فلكل تقديره وفكره ، وبموضوعية تامة تقف هذه المصادر جميعا عند مصدر واحد كما أنها في الحديث هي نفسها في القديم .

فمصادر اليونان ذات صلة بالحضارات القديمة ، واثر السومريين واضح في الأساطير الإغريقية اليونانية

(١) أنور الجندي :معلمة الإسلام ١ / ٣٨٥ .
(٢) سفر الحوالي : العلمانية ، مطابع أم القرى ، طبعة أولي ١٩٨٢ م ص ٢٣ .

وقصصهم الخرافية وفي تأملات فلاسفتهم القدماء ونظرتهم إلي الكون "[١] .

وما حضارة الغرب وأمريكا في العصر الحديث إلا نسخة مكررة من الفكر الروماني القديم .

يقول ول ديورانت عن ذلك : " ولم يشهد العالم قبل اليونان رجالا يبحثون عن الطبيعة بمثل دقتهم وبمثل ولعهم بها وحبهم إياها .. وقد دفعهم تشوقهم وتطلعهم لمعرفة كل حقيقة وكل نظرية إلي أن يجعلوا الفلسفة مغامرة ممتازة من مغامرات العقل الأوربي ، وهم لا يكتفون بهذا بل نراهم لا يكادون يتركون فرضا من الفروض أو نظاما من الأنظمة إلا فكروا فيه ولا يكادون يتركون لغيرهم شيئا يقولونه عن مشاكل الحياة الكبري ، فالواقعية والقول بأن الأشياء موجودة بالاسم دون الحقيقة، والمثالية والمادية والتوحيد ووحدة الوجود ، والشرك ، والحركة النسائية ، والشيوعية ، والبحث التحليلي الكانتي ، الشوبنهوري ، والعودة إلي الحياة البدائية التي يقول بها روسو ، ومذهب فرويد نتشه في التحلل من القيود الأخلاقية ومذهب سبنسر التركيبي ، ومذهب في التحليل النفسي ، وبالجملة كل أحلام الفلسفة وحكمتها نشهدها هنا في مهدها وبداية عهدها " .

ثم يزيد الأمر شرحا ووضوحا فيقول : " فديمقراطياتنا وديكتاتورياتنا علي السواء ترجعان إلي المثل اليونانية .. ونظرية تحسين النسل وفكرة ضبط الشهوة الجنسية ، والسيطرة علي الغرائز والعواطف ، وعبادة الصحة والحياة الطبيعية ، ومذهب إشباع الحواس أكمل إشباع ، كل هذه وجدت صيغها التاريخية في بلاد اليونان "[٢] .

ويقول أبو الحسن الندوي : " فأصبحت الحياة في أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة في يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين، وعادت الطبيعة الأوربية (التي كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة . ولا غرابة في ذلك ، فالأوربيون إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان والسلائل الأوربية الأخرى . ترى دينا خلوا من الروحانية كما لاحظ الدكتور"هاس"في ذكر الحضارة اليونانية،وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد في أعماله،وكثرة اللهو والطرب في الحياة

(١) أنظر أدوارد كيرا : كتبوا علي الطين ٢٥١ .
(٢) قصة الحضارة : ٨/٤ ص ٢١٠ .

كما ذكر " ليك " عن الديانة اليونانية وترى كذلك تهافتا علي ملذات الحياة تهافت الظمأن علي الماء والفراش علي النار ، والحرص علي إقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين، كما وصف به سقراط الرجل الجمهوري اليوناني في عصره" [١].

وفي ظل هذا الفكر الذي تنطلق منه النظم الوضعية أعيد كتابة القوانين التي تنظم الحياة في الدول الغربية وأمريكا ، وخرجت إلي المجتمعات واقعا عمليا يرسم صورة هذه النظم ، ويطبق أبحاث العلماء في مجال النفس والاجتماع الإنساني ، فكانت الإباحية والنفعية والعنصرية ومذهب العقد الإجتماعي . بل إن الأعجب من ذلك أنها أصبحت تفرض بالسلاح علي المجتمعات الإسلامية وما مسميات الشرق الأوسط الكبير والجديد عنا ببعيد ، وللأسف أصبح في بلاد المسلمين من يدعو إلي هذا الوضع الجديد ويساعد عليه ، مع أن القرآن الكريم قد تناول النظم الوضعية التي يتخذها البشر لتنظيم حياتهم بمعزل عن الوحي الإلهي في كثير من الآيات بالبيان والحكم عليها ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [٢]. وقوله تعالى: ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا﴾[٣].

وقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدي ﴾ [٤].

وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ [٥]. وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ {٣٠}﴾ [٦]. وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ {٧}﴾ [٧]. وقوله : ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾[٨].

وهذه الآيات تصور مصادر النظم المادية البشرية وتجعلها متمثلة في التقاليد والأعراف الشعبية حتى أصبحت عادة تنتقل من جيل إلي جيل ، أقنع بها الإنسان نفسه فهو لا يقبل الهدى لأنها

(١) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم ، ١٦١ .

(٢) سورة الجاثية آية : ٢٣ .
(٣) سورة المائدة آية : ١٠٤ .
(٤) سورة النجم آية : ٢٣ .
(٥) سورة إبراهيم آية : ١٣ .
(٦) سورة الأعراف آية : ٣٠ .
(٧) سورة الروم آية : ٧ .
(٨) سورة الذاريات آية : ٥٣ .

أصبحت تكفيه كما يزعم ، وهو لا يبحث عن الحقيقة ، وتشير إلي الاستبداد السياسي ودوره في مصادر النظم وكذلك الاستبداد الاقتصادي والاجتماعي ، وبينت دور العقل الجماعي في صياغة مصادر النظم حتى أصبح العقل لديهم دينا ، وهم في سبيل ذلك يواجهون غيرهم من الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – الذين يدعونهم إلي دين الله ، كما بينت الآيات أن الهوى – العقل والرأي – مصدر من مصادر النظم الوضعية ، يستوي في ذلك الأفراد والجماعات ، كما بينت فتنه الناس بالدنيا – الطبيعة – حتى أضحت لهم مصدرا ومرجعاً .

٤ – النظم الوضعية بين الثبات والتطور .

عاشت أوربا مرحلة زمنية تعرف بالعصور الوسطى أو المظلمة ، وعندما جاء عصر النهضة وبزغت فيه شمس العلوم التجريبية ذات الصلة بالحضارة الإسلامية ، " ونظرا لنجاح المنهج العلمي في كشف الظواهر الطبيعية ، فقد افترض أن هذا المنهج سيحقق نفس النجاح في كشف حقائق الظواهر الاجتماعية ... بمعني أن العلوم الاجتماعية ستصل يوما إلي ما وصلت إليه العلوم الطبيعية من دقة ، وقد ظهر هذا الاتجاه تدريجيا ، فلما جاء كونت أعلن علمية علم الاجتماع ووضعه علي رأس القائمة عند تصنيفه للعلوم ، واعتبره علما طبيعيا"[١].

وفي القرن العشرين وصفوا دراسة القانون الإنساني بأنها (الهندسة الاجتماعية) أي أن خبراء القانون سيتمكنون من وضع قوانين ثابتة للإنسان كالتي يضعها المهندس لآلاته "[٢] كما ادعت كل فلسفات القانون الاجتماعي، أن القانون الاجتماعي – مثل القانون الفطري – موجود في المجتمع بصورة ملازمة، وأنه ليس علينا إلا اكتشافها"[٣] ولكن هذا التوجه لم يحقق شيئاً ، والسبب في ذلك يكمن في أنهم كانوا يبحثون عن شيء حقيقي في مكان لا علاقة له بذلك الشيء ، " فالحقيقة هي أن قانون الحياة البشرية – أيضا – أبدي مثل قوانين الطبيعة والأحياء ، ولكن المكان المقرر لمعرفة هذا القانون هو الوحي الإلهي وليس العلوم الإنسانية"[٤].

(١) منصور المطيري : الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ، ص ٥٥ وما بعدها .
(٢) د. محمد رأفت سعيد ، المدخل لدراسة النظم الإسلامية ، ص ٣٣ .
(٣) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ٣٠٦ .
(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وقد كشفت الاختلافات بين خبراء التشريع في القضايا المتصلة به عن عمق هذه المشكلة وأنها ليست مجالا تصل إليه العقول البشرية ، فالقانون مازال يبحث عن نفسه ، وكل الجهود لم توفق في الحصول علي صورة متفق عليها من القانون ، وقد انقسم خبراء التشريع إلي مدارس فكرية كثيرة ، والسبب في ذلك عدم توصلهم إلي أساس صحيح يمكن إقامة صرح التشريع عليه ، أنهم يجدون أن القيم التي يحاولون جمعها في هيكل الدستور يستحيل وضعها في ميزان واحد وقد دار الخلاف حول القوة التي تسند الدستور حتى يكون القانون نافذ المفعول، يقول " جون آستين : " القانون هو الحكم الذي أصدره رجل رفيع المنزلة سياسياً لمن هو أدني منه في المرتبة السياسية "[1] .

والمحدثون يقولون : رضا الشعب العام دعامة أساسية في التشريع ، وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون ، هل القانون قابل للتغير أولا؟ البعض يقول : إنه لابد من دستور موحد صالح لكل العصور ، وهذه نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون ، والبعض الآخر يرى أنه ليس هناك دستور أبدي ، وأي تشريع يصلح لعصر ما ليس – بالضرورة – صالحاً لعصر آخر ، وهذا تبعاً للنسبية التي قضت علي استقرار القانون وقلبت جميع القيم الإنسانية رأساً علي عقب . ويتصل بذلك عدم القدرة علي تحديد مفهوم القيم التي يقوم عليها الدستور وكذلك المصالح التي لابد للدستور المثالي أن يحافظ عليها .

وقد نقل البروفيسور – باتون – رأيا لبعض علماء التشريع يقول : " إن جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن الأهداف في فلسفة التشريع قد انتهت إلي غير ما نتيجة "[2] .

ومن الأسئلة الكبيرة التي لم يستطع خبراء التشريع الوصول إلي اتفاق بشأنها، عناصر التشريع ، وهل هناك عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها في أي دستور عند تعديله أو تجديده أو تغييره ؟ الجميع يسلم نظريا بأنه لابد من عنصر في التشريع يتمتع بالدوام والأبدية ، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة ، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة ، وعلي هذا فالدستور يفتقر إلي عنصري

(١) نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٢) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ٢١٧ : ٢٢٢ .

" الأبدي والإضافي " إذ بدون أحدهما تشقى البشرية ، وقد عبر عن ذلك أحد قضاه الولايات المتحدة الأمريكية – كاردوزو – علي النحو التالي : " ومن أهم ما يحتاج إليه التشريع اليوم ، أن نصوغ له فلسفه للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر وتغير عنصر آخر "[1] .

ورغم كل ذلك فقد بقيت المشكلة بدون حل ، وهناك مجالات أخرى في الدستور لم يستطع الخبراء معالجتها ولا الإشارة إليها ، لأنها تتصل بالحقيقة الجوهرية للإنسان، والدستور البشري لا يستطيع التحكم فيها أو معرفة أسرارها حتى يضع لها قانونا يراقبها أو يدفعها إلي الصدق ، وليس هذا إلا للعقيدة الصحيحة الصادقة ، ويتضح ذلك من خلال العلاقة بين القانون والأخلاق ، وكذلك تحديد مفهوم القيم التي تتصل بالجرائم وغيرها ، فمثلا الجريمة في الدستور الذي وضعه الإنسان " كل عمل يضر بالأمن العام أو نظام الحكم القائم " ، وهذا هو الأساس التشريعي ، حيث لا يوجد دليل يقوم عليه التشريع ، وقد ترتب علي ذلك إقرار أن جريمة الزنا ليست بجريمة إلا إذا تمت جبراً أو إكراها لأحد الطرفين ، وكذلك الاستيلاء علي أموال الآخرين إذا تم برضاء المالك لهذا المال ، وكذلك الخمر لم يستطع التشريع الإنساني أن يحرمها ، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان وهو حر في اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه ، ومن ثم لا يتدخل القانون في شرب الخمر والسكر الذي يتبعه إلا إذا اعتدي شارب الخمر علي أحد المواطنين "[2] .

هذه بعض الحقائق التي تتصل بموقف النظم الوضعية من الثبات والتطور في القوانين عرضناها لنقف علي القصور الذي تعانيه النظم الوضعية كما بينه خبراء القانون عندهم مع أن الأسئلة التي لم يجد لها الخبراء أجوبة تقنعهم جاءت أجوبتها واضحة في النظم الإسلامية .

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ٢١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

المبحث الرابع
آثر النظم

يتفق القدماء والمحدثون علي أن للنظم وظيفة وأهدافاً تؤديها في حياة الناس ، ويظهر أثرها في واقعهم المعايش ، ومن هنا كانت الحاجة إلي النظم .

يقول ديفيز : " إن النظم مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين تتداخل فيما بينها حول وظيفة أو أكثر[1] ". وتظهر وظائف وأهداف وآثار النظم باحتكاكها مع واقع الإنسان وبيئته التي يعيش فيها ، ونتناول هذه الوظائف وتلك الآثار بالبيان والتفصيل .

أولاً : أثر النظم الإسلامية

جاءت النظم الإسلامية مستوفية لكل الخصائص والمعالم التي تؤكد توافقها مع الطبيعة الإنسانية بما فيها من طاقات وقدرات ونوازع ودوافع ، وما ذلك إلا لأنها نظم الله الذي خلق الإنسان وصوره في أحسن تقويم ، وقد جاءت آثار النظم الإسلامية بعيدة المدى عظيمة التأثير والأثر في الإنسان ، لأنها تتعامل مع الكيان الإنساني بشقيه المادي والروحي ، وقد جاءت آثار النظم الإسلامية علي النحو التالي :

١ – أثرها في بناء الإنسان

الإنسان هو اللبنة الأساسية التي يتكون منها المجتمع ، ولذلك اهتمت به النظم الإسلامية أيما اهتمام لتجعل منه المثل الصالح والقدوة الحسنة والنموذج الطيب الذي يشكل مجموع الأمة ، وقد بينت النظم الإسلامية للإنسان المسلم الحقائق اللازمة لبناء شخصيته وتقويم فكره ، حيث أمدته بالحقائق التي تتصل بخلقه ومكانته بين المخلوقات ، ودوره ومهمته في الكون ، ومدي رعاية الله له وعنايته به ، كما حددت له السلوك المستقيم ، ورسمت له الصورة الصحيحة الحقيقية لغايته التي خلق من أجلها ، وبينت له نهايته ومستقره في الآخرة .

والمتأمل في النظم والقيم الإسلامية يرى أنها جاءت علي قدر هذه الحقائق التي يزرعها الإسلام في قلب وعقل المسلم ، ولذلك يظهر هذا الأثر في بناء الشخصية من خلال " تلك الخصائص العامة التي يصنعها الإسلام بطبيعة الفلسفة التي يقدمها للإنسان ،والقيم التي يدخلها إلي بنائه النفسي ، بحيث كل فرد من أفراد المسلمين مهما تكن خصائصه ، الوراثية الجسمية ، البيولوجية والفيزيولوجية ، فإنه يأخذ حظه من الآثار التي تولدها التربية

---

(١) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٥ .

الإسلامية في شخصيته ، والتي يصبح بفضلها كائنا يجمعه قاسم مشترك مع غيره من الأفراد داخل نفس المجتمع "[1].

وهذا الأثر الذي تحدثه النظم الإسلامية في المسلم يعمل في اتجاهين : اتجاه تربية للمسلم ، واتجاه النتائج التي تعود عليه ، نتيجة لتطبيقه للنظم ، حيث يجد ثمرة هذه التربية ، وبالتالي فهذا التأثير ذو شقين : شق يترتب علي قراءة الإنسان في نظم الإسلام وثقافته ، والشق الآخر يترتب علي معايشة الإنسان لثقافة الإسلام والتزامه تطبيقا لنظمه "[2] وهكذا فالنظم الإسلامية تصنع الإنسان القدوة الذي يوجد لديه وعي صحيح بحقيقة النظم الإسلامية ، يمكنه من كشف الدخيل من النظم الوضعية ، ومواجهة الوافد من التيارات الثقافية البشرية النابعة من أهواء العقول ، وهذا هو التحصين لعقل المسلم ضد هذه الإنحرافات الفكرية والذي يتحقق لديه بتنمية قوى الإنسان الروحية والفكرية – الحسية والمادية ، مما يحقق للمسلم السير في طريق طاعة الله – عز وجل – ومراقبته وخشيته والبعد عن طريق الهوى والعصيان ، وتتجلى آثار النظم الإسلامية في الطمأنينة والسكينة التي تحدث الترابط الكامل بين أجزاء الكيان البشري . يقول تعالى : ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾[3] ويقول سبحانه ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[4]

وأهم مظاهر هذه الآثار أن يقوم الإنسان بمفردات نظمه وبمهمته التي خلقه الله من أجلها ، أخذا بالأسباب والوسائل الإنسانية والكونية التي تحقق له النجاح في عمارة الكون بأسلوب يتفق مع نظم الإسلام وصولا إلي تحقيق المقاصد العامة للإسلام .

٢ – أثرها في بناء الأسرة

الأسرة هي الوسيلة التي شرعها الله وجعلها سببا للتناسل وتحقيق الذرية ، فالأفراد جميعا ينتمون إلي أسر مختلفة ، والأسرة تحمل في نظام الإسلام أمانة إعداد الأفراد ، ولذلك كان اهتمام الإسلام بها عظيما ، ودعوته إلي قيامها وتحقيقها أمرا أكيدا ، فقد رغب الإسلام في الزواج ، وجعله السبيل الوحيد والطريق المشروع للعلاقة بين الرجال والنساء ، وحتى يتحقق وجود الأسرة –

---

(١) د. عبدالمجيد بن مسعود – القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، كتاب الأمة ، طبعة أولي ١٩٩٩م ص ١٢٦ .

(٢) د. مصطفي أبو سمك : نظرات في نظم الإسلام وثقافته ، ص ١٦٦ .

(٣) سورة التغابن آية : ١١ .

(٤) سورة الرعد آية : ٢٨.

معمل الأفراد – يسر الإسلام الأسباب التي تؤدي إلي قيامها ، وأتاح الوسائل التي تحقق ذلك ، ولم يقف بها عند الأسباب والوسائل المادية فقط ، وإنما امتد بها إلي الصفات الأخلاقية ومكارم الأخلاق ، ومكانة الإنسان وموقعه من فكر الإسلام وثقافته ، مبينا للناس فلسفة الزواج والدوافع التي علي أساسها يتناكح الناس وبين الحقيقي منها والوهمي ، والأصيل والمزيف ، وذلك في كل من الزوج والزوجة ، حتى إن الإسلام تغلغل في البيان ، فتناول عوامل الوراثة وخصوصا منها ما يتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد الحسنة والسيئة ، وجاء أثر النظم الإسلامية واضحا في بناء الأسرة عندما رسم الإطار الصحيح لمكان الرجل والمرأة في الأسرة ، وحدد لكل منهما دوره وما له من حقوق وما عليه من واجبات ، ورتب الخطوات التي علي أساسها تقوم العلاقة بين الزوج والزوجة ، وشرح لهما الغاية من هذا الزواج ، وأنه لا يقتصر علي المتعة وقضاء الوطر فقط ، وإنما هي وسائل ودوافع يحرك الله بها الإنسان لبقاء النسل وقيام الذرية التي هي عماد الأسرة ، ولما كانت تربية الأولاد تحتاج إلي مرونة وصبر ، وجدنا نظم الإسلام تعالج ذلك ببيان المنهج الذي يتبعه الزوج والزوجة في تربية الأولاد ، وبيان الخير الذي يعود عليهما من وراء التربية الحسنة ، كما عالج الأزمات التي قد تطرأ علي الأسرة ، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، مع بيان دورهما في هذا العمل الشاق مما يدفع بالأولاد إلي برهما والعطف عليهما ، وفي كل ذلك تعرض النظم الإسلامية صورا واقعية من مصادرها الأصيلة تشرح من خلالها للزوج والزوجة المعوقات التي قد تعرض لهما فيما يتصل بنعمة الأولاد والغلية التي من أجلها يطلب الولد ذكرا كان أو أنثي وما هو موقف كل منهما ، وكيف يقف كل منهما عند فقد الولد أو الحرمان منه ، وذلك من خلال حياة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – وحياة المؤمنين الصادقين الذين يقول الله عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً {٧٤} ﴾ [1] .

ويقول عن مقاصدهم في الزواج والتناسل ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً {٥} يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ

(١) سورة الفرقان آية : ٧٤ .

آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً {٦} ﴾ [1] . وقيامهم بواجب تربيتهم وما يرجونه لهم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ {٣٩} رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ {٤٠} ﴾ [2] .

وفي مقام التربية تعرض النظم الإسلامية من خلال مصادرها نماذج للصادقين تساعد الزوجين علي تربية أولادهما ، ولا يخفي علينا ما عرضه القرآن الكريم عن لقمان – عليه السلام – وقد جاءت النظم الإسلامية ببرامج كاملة تتصل بالأسرة بناءاً وتكوينا ومقاصد وأهدافا وحلولا للمشكلات التي تتعرض لها الأسرة .

٣ – أثرها في بناء المجتمع

يقوم المجتمع علي عدد من الأفراد يمثلون كيانه وحقيقته ، تربط بينهم روابط متعددة تختلف في تصورها من مجتمع إلي آخر ، " فكل مجتمع لا يصل للحياة المشتركة ، إلا إذا وجدت بين آحاده روابط من ضروب شتي ، تجمع بينهم وتوجههم إلي غرض واحد ، وقد وجدت هذه الروابط في أول أدوار الاجتماع ، وكانت من السذاجة علي قدر ما كانت عليه الأجيال الأولي من البساطة ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا مجتمعا بأفراد من نوعه ، كانت أولي تلك الروابط الحاجة للمعايشة، فكان الأفراد يترابطون علي القيام بها تحصيلا للقوت ودفاعا عن الحوزة ضد الحيوانات الضارية ، وضد المغيرين عليهم من الجماعات المغايرة لهم ، وكانوا كلما ارتقوا في الأسباب ، زادت الروابط التي بينهم تركبا ، ومازالت تتركب حتى بلغ الإنسان شأوا بعيدا من المدنية ، فبلغت الروابط بينهم من التعقد بحيث يعوزها خبرة عظيمة بما يناسب الجيل من القيود والروابط . من هنا سارت الحاجة ماسة إلي وجود علماء الاجتماع ليتعرفوا هذه الروابط ، ويقفوا علي أسباب توثقها ، وعلل تفككها، ووسائل معالجتها ، حرصا علي بنية المجتمع من الانحلال [3] . وهذه الروابط متداخلة ومتشابكة ومعقدة فالمجتمع يجمع بين الذكر والأنثى ، والأم والأب ، والزوجة والولد ، والأخ والصديق والجار في السكن ، والصاحب في العمل، والصغير والكبير ، والصحيح والمريض ،

(١) سورة مريم آية : ٥ ، ٦ .
(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) محمد فريد وجدي : مهمة الإسلام في العالم، هدية مجلة الأزهر ١٤٢٢هـ – ٢٦/٢ .

والغني والفقير ، والحاكم والمحكوم ، وكلها حقائق تشكل المجتمع ، وتكشف عن عمق المشكلة التي تواجه من يضع روابط للمجتمع تربط هذه النماذج جميعاً، مع مراعاة العدل والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات ، ولا يتأتى ذلك إلا للخالق الحكيم الذي خلق الجميع ، وسبق علمه بهذه الحقيقة التي يقوم عليها المجتمع ، فجاءت تشريعاته ونظمه موازية لهذه الحاجات محققة للعدل والمساواة بين هذه النماذج وتلك الحالات التي إن أهمل منها نموذج واحد، أو لم يعالج معالجة تتوافق مع حالته فربما أدي ذلك إلي وقوع الخلل في المجتمع.

وقد جاءت نظم الإسلام كاملة شاملة فوضعت الأسس العقدية التي تدفع بالمسلم إلي المشاركة في بناء وإخراج المجتمع الصالح ، ووضعت الأسس العملية في جانب العبادات لتساعد علي تحقيق هذا الهدف ولتكون نموذجا تطبيقيا ومكانا للتدريب علي الحقائق النظرية ، وهذا ما نلاحظه في صلاة الجماعة والجمعة ، وفي صوم رمضان وفي الحج وفي إخراج الزكاة ، فإن هذه الشعائر والنظم تحمل مقاصد اجتماعية لا تخفي علي صاحب علم أو عقل رشيد ، ومن ثم جاءت النتائج واضحة فرأينا المودة والرحمة بين المسلمين ، والتواصل والقيام بالحقوق والواجبات والمشاركة في السراء والضراء بدأ من مجتمع المدينة الذي آخي فيه الرسول – صلي الله عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار ، وقد حافظت النظم الإسلامية في بنائها للمجتمع علي الجانب المادي والنفسي بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض، فرفعت شأن من يحسن إلي جاره ويمنع عنه أذاه وجعلت ذلك من علامات الإيمان الصادق .

٤ – أثر ها في بناء الأمة

جاء الإسلام ليجمع من يدخلون فيه تحت راية واحدة وأمة واحدة ، ووضع الأسباب والوسائل والمقومات التي تحقق ذلك ، وتكفلت النظم الإسلامية ببيان ذلك فالقاعدة الفكرية واحدة ، والمنظومة الثقافية واحدة ، ومصادر النظم لدي الجميع واضحة .

وقد جاءت تراتيب النظم الإسلامية في بيان هذه الحقيقة واضحة ، حيث الأمر بالتعاون والاعتصام ، والدعوة إلي إخراج الأمة وتكوينها ، وبيان صفات هذه الأمة وخصائصها ومقوماتها ، والدور المنوط بها مع النهي عن الاختلاف والتفرق وترك سبيل المؤمنين والتشيع أحزابا ، وهذا يلقي بالمسئولية علي عاتق كل مسلم للقيام بدوره في تحقيق هذا المطلب الإسلامي ، وقد جاء أثر النظم الإسلامية واضحا تجاه هذه الحقيقة ، حيث الروابط التي تخلق من المجتمع أمة ، " فقد كانت الروابط الاجتماعية للأمم إلي عهد الإسلام تنحصر في التعاون علي تحصيل مقومات الحياة المادية بإثارة الحروب علي المجاورين وشن الغارات عليهم ، فإذا كتب لجماعة منها النصر جعلت همها تجريد المقهورين من أموالهم ، واستعباد رجالهم ونساءهم ، والأخذ بسنة العسف في معاملتهم ، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة ، وغايتها تسويد الجنس الغالب علي جميع الأجناس البشرية ، ولكن الروابط الإسلامية كانت أصولا أدبية في أرفع ما يصل إليه العقل من معاني العدل الإلهي فهي تقوم علي أسس شرعها الله سبحانه وتعالى :

أولها : المساواة بين جميع الخلق لأن كلهم لآدم وآدم من تراب .

ثانيها : أن التفاضل بينهم لا ينبني علي الفوارق من جنس ولون ولغة

ولكن علي الكمالات النفسية،يقول تعالى﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[١].

ثالثها : أن القبائل والشعوب خلقت لتتعارف علي الإضطلاع بأعباء الحياة لا لتتناكر وتتناحر.

رابعها : تسويد الحق في جميع المواقف علي القوة . يقول تعالى [فماذا بعد الحق إلا الضلال] [٢].

خامسها : العمل علي إعلاء كلمة الله في الأرض ، وهي العدل المطلق لا المصلحة المادية [٣].

ولاشك أن النظم الإسلامية هي التي ساعدت علي إخراج الأمة الإسلامية كواقع عملي في السابق ، ولا تزال هي القادرة علي إعادة إخراجها مرة أخرى لتقوم برسالتها التي تحتوى علي ثلاثة أقسام رئيسية هي :

١ – الإيمان بالله ، ومحوره الإيمان بقدرته وهيمنته ، وأنه المالك المتصرف بالوجود كله . وثمرة هذا الإيمان تحرر الإنسان من طغيان الآلهة المدعاة وإطلاق قدراته العقلية والنفسية والجسدية

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٢) سورة يونس آية : ٣٣ .

(٣) محمد فريد وجدي : مهمة الإسلام في العالم ٣٠ وما بعدها .

لاستعمالها في تسخير الكون دون عائق من رهبة أو رغبة .

٢ – الأمر بالمعروف ، ومحوره الدعوة إلي التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم ، لأن في هذا التوافق بقاء الإنسان ورقيه.

٣ – النهي عن المنكر ومحوره التحذير من الاصطدام بسنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم لأن هذا الاصطدام تدمير لبقاء الإنسان وسقوطه في الدنيا والآخرة [١] .

وهذه العناصر الثلاثة الرئيسية التي تتكون منها الرسالة متضمنة في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٢] .

وهذه الرسالة مهمة وضرورية في وجود الأمة واستمراريتها ، وترجع هذه الأهمية إلي الأسباب التالية :

الأول : تتقرر مكانة الأمة بين الأمم علي المستوى العالمي بمقدار ما تقدمه من عطاء حضاري للآخرين ، وهذا العطاء هو الرسالة التي تحملها الأمة بين الأمم الأخرى ، وتخضع في خدمتها كافة إمكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية ، وهو ما يسميه – توينبي – الأناقة الحضارية .

الثاني : أن هذا العطاء الحضاري هو الضامن لبقاء الأمم واستمرارها، ذلك أن الأمة التي تتوقف عن العطاء تبدأ بالأخذ ، والأخذ الذي لا يقابله عطاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم ، ولكنه فناء بطيء لا يراه إلا العارفون بقوانين الإجتماع البشري وسنن التاريخ، ولأنه يتم علي مراحل تستغرق كل مرحلة منها جيلين أو ثلاثة.

ففي المرحلة الأولي ، تأخذ الأمة الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية والحربية ،

وفي المرحلة الثانية ، تأخذ الأمة العادات المادية كأشكال اللباس وأشكال الأساس والطعام .

وفي المرحلة الثالثة ، تأخذ الأمة المظاهر الثقافية ، كاللغات ونظم الإدارة والنظم الدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية والفنون وأشكال الترويح .

وفي المرحلة الرابعة ، تأخذ الأمة القيم والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية .

---

(١) د. ماجد عرسان : إخراج الأمة الإسلامية كتاب الأمة طبعة أولي ٩١ / ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

وفي المرحلة الخامسة ، تأخذ الأمة العقائد ، وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز ويبدأ الذوبان الكامل .

الثالث : الذي يمثل أهمية الرسالة في حياة الأمة ، هو أن الرسالة حاجة نفسية اجتماعية ، والأمم التي تحمل الرسالة تحفظ وحدتها وتجنب مجتمعها الانقسام والتفتت والحزبية والطائفية والتصارع من أجل المصالح والعصبيات المحدودة ، وتتناوب الظاهرتان بشكل كامل بحيث إن غياب إحداهما يؤدي إلي بروز الثانية ، ذلك أن الرسالة توحد أفراد الأمة وجماعتها حول هدف أسمى ، يستهلك طاقتهم ونشاطاتهم ، فتختفي الانقسامات والفتن ، أما حين تغيب الرسالة ، فإن الناس تتقاسمهم أهداف فردية ومصالح عصبية ، وبذلك تبرز الحزبية والعصبيات وتشيع الفتن ، وتتفرق الأمة إلي فئات متباينة متسارعة"[١] وإلي هذا يشير . قوله تعالى : ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم﴾ [٢] .

ومما لا شك فيه أن مكونات النظم الإسلامية العقدية والتشريعية والأخلاقية تساعد علي إخراج الأمة القوية المترابطة فكريا وثقافيا ، والمتأمل يري أن العلاقة قائمة بين النظم الإسلامية وبين قيام الأمة المسلمة وإخراجها إلي المستوى العالمي ، وهذه العلاقة هي أثر النظم في تربية الفرد والأسرة والمجتمع، فكل أحكام النظم تغرس في المسلم روح الجماعة " ويكفي الإشارة إلي زيادة الكم في الآيات القرآنية الكريمة الخاصة بالجماعة علي الآيات القرآنية الخاصة بالفرد ، ولذلك نجد معظم آيات القرآن تأتي موجهة إلي الجماعة .. نداء لها وخطابا .. تحدثا عنها وحاكمة عليها .. آمرة إياها وناهية ... مذكرة لها ومحذرة ، وكذلك يكون الشأن في آيات القرآن المتعلقة بالفرد ، حيث نجد فيها ما يربطها بالجماعة لفظا ومعني "[٣] ، وبناء الأمة مطلب إسلامي كما جاء في قوله تعالي ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤} ﴾[٤].

٥ – أثرها في بناء الحضارة

الحضارة " هي نظام اجتماعي يعين الإنسان علي زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢) سورة التوبة آية : ٣٩ .

(٣) د. مصطفي أبو سمك : نظرات في نظم الإسلام وثقافته ، ١٥٦ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٠٤.

١ – الموارد الاقتصادية . ٢ – النظم السياسية .

٣ – العقائد الخلقية. ٤ – متابعة العلوم والفنون [١].

وهي كذلك " تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها في نظام اجتماعي ، يقود الإنسان إلي الرقي والإخاء والأمان "[٢] .

ويري البعض أن التعريف الإسلامي للحضارة هو " القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان "[٣] .

وذلك أنه " عندما طبقت شريعة الإسلام تطبيقا كاملا ساد الأمة الإسلامية نظام واحد وفكر واحد واتجاه واحد .. لأنها جميعا تستمد من نبع واحد وتسقي بماء واحد ، وتكون من ذلك بعد الفتح الإسلامي لفارس والروم عالم موحد في روحه وطموحه وضميره وفكره وغايته وعمله ، ساده ما يعرف في التعبير العصري – بائتلاف النغمة – إن هذا الذي حدث من التجانس العام في عالم الإسلام يسمى : نظام الإسلام . أما الحياة التي بدأت ثم ترعرعت وازدهرت ، ثم تطورت وانتشرت في ظل نظام الإسلام وتطبيقه بحركية إيجابية بناءة وطاقة متجددة دائبة ، ونماء موصول مضطرد في الزمان والمكان والإنسان فهو ما يسمى بالحضارة الإسلامية "[٤] .

وفي ظل الإسلام ونظمه بزغت شمس الحضارة الإسلامية وأشرق نورها ، وهذا هو أثر النظم الإسلامية في الحضارة ، فكل مقومات الحضارة موجودة في الإسلام ، وكذلك أسبابها ووسائلها ، فالحض علي العلم والتعلم والبحث والتحري والاستنتاج كلها حقائق إسلامية وأصول شرعية تقوم عليها نظم الإسلام . يقول تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥} ﴾[٥] ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ {١٧} وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ {١٨} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ {١٩} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ {٢٠} ﴾[١] .

ولما كان الإنسان مقوما من مقومات الحضارة فقد ، اهتم به الإسلام وعمل علي تنمية وسائل الإدراك فيه ، وجعل التفكير والتعقل أخص خصائصه ، وقد دعاه الإسلام إلي إعمال هذه الملكات واستثمارها ، وفتح له الطريق إلي ذلك فعرض عليه في القرآن المنهج الصحيح والطريق الموصل إلي ذلك . كما اهتم الإسلام بالعمل كمقوم من مقومات الحضارة ، فدعى إليه وحث عليه وحدد مجالاته التي تشمل الكون كله ، وبين أسلوبه الصحيح وغايته التي تجعله مشروعا ، وبين غير المشروع من الأعمال .

وقد عالجت النظم الإسلامية كل قضايا الحضارة بوضوح لا خفاء فيه وبموضوعية لا تزايد فيها وبعلمية تقوم علي الحق والحقيقة ، كما عالجت فكر الحضارة وقيمها ، أي أن نظم الإسلام شيدت صرح حضارتها الخارجي والداخلي، المادي والروحي يذكر المستشرق الدنماركي جوستاف فون ، أن التأثير الحضاري للإسلام ونظمه قد شمل

(١) ول دورنت : قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود ، مكتبة الأسرة ٢٠٠١ ، ٣/١.

(٢) أبو الأعلي المودودي : الحضارة الإسلامية ، الطباعة العربية ، ٤ وما بعدها .

(٣) د. توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، دار الوفاء بالمنصورة طبعة أولي ٨٨ ص . ٤٠ .

(٤) توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن الكريم ، دار المنار ، القاهرة ، ٨٤ . ٣٢/١ .

(٥) سورة العلق آيات : من ١ : ٥ .

(١) سورة الغاشية آيات : ١٧ : ٢٠ .

تغيرات أساسية أحدثها في مجال القيم ، ومحور هذه التغيرات : تحديد هدف الحياة وغايتها وراء هذه الحياة الدنيا ، ومن ثم تكون قيمة أي إنجاز بشري هي في تقدير حسابه وجزائه في الدار الآخرة الباقية ، قد ضمن ذلك استمرارية الحياة الإنسانية بدون قطع أو تفتت ، وهكذا يتوالى السير ويتصل العمل ولا تكون الحياة تتابعا لتصرفات جزئية منقطعة منعزلة بعضها عن بعض "[٢] .

ويضرب الأمثلة للأسئلة الجوهرية – المستشرق السابق – التي يطرحها الإسلام من خلال نظمه ، ويقدم لها الأجوبة وهي " كيف تعيش حياة صحيحة ، وكيف تفكر تفكيرا صحيحا، وكيف تقيم نظاما صحيحا ؟ وكيف قدم الإسلام أجوبته لهذه المشكلات والقضايا في التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبي لمناشط الإنسان (الواجب . المندوب . المباح . المكروه . الحرام) وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوى السياسية ، وكان من ثمار هذه القيم الأساسية التي قررها الإسلام والأجوبة التي ارتآها

(٢) د. محمد فتحي عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، طبعة أولي ، ص٤٢.

للمشكلات الإنسانية الرئيسية في ظل تلك القيم ، أن استحدث الإسلام واجبات علي عاتق الفرد أو عمد إلي تعديل واجبات قديمة ، كما أنه قرر حقوقا جديدة ، وتتناول هذه الواجبات والحقوق شتى مجالات السلوك الإنساني ، سواء السلوك الفردي أو السلوك الاجتماعي وعلاقة الفرد بقرابته أو بالجماعة كلها ، وقد أدي ذلك إلي تقويم أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة في هذا الضوء ، بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده "[1] .

وأهم خصائص هذه الحضارة أنها حضارة إيمان تؤمن بالله ورسالته وأنبيائه -عليهم السلام - وتهتدي بهدي خاتم النبيين محمد - صلي الله عليه وسلم - وأنها حضارة تقدم بكل معاني الكلمة لا جمود فيها ولا رجعية ، وأنها حضارة تتصف بالمرونة وسعة الأفق ، وأنها حضارة محبة وسلام تفرق بين السلام والاستسلام ، وأنها حضارة تسامح لا حقد فيها ولا كراهية ، وقد جاءت مصادرها حافلة بالحقائق التي تدعو إلي ذلك وتحض عليه وترغب فيه ، وهي حضارة تتصف بالحيوية والاستمرار والوحدة ، كما أنها حضارة إنسانية بكل معاني الكلمة تستهدف أولا وأخيرا خير الإنسان في الدنيا والآخرة ، والرحمة به والحفاظ علي كرامته ، والنهوض بمستواه الروحي والفكري والاجتماعي والاقتصادي ، ومنع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وتجنيبه كل ما من شأنه أن يزل به الضرر ويظهر ذلك بوضوح في تنظيم الإنسان في حياته الخاصة والعامة، فهي بذلك حضارة الأمانة المطلقة ، وهي صفة تميزها عن كثير من الحضارات السابقة عليها واللاحقة بها"[2].

وقد ظهرت آثار تلك الحضارة التي شيدتها النظم الإسلامية في كثير من المجالات ، وفي كثير من التخصصات ، فكان التفوق العلمي ، والتقدم العسكري والاقتصاد المتكامل والبناء الاجتماعي المتماسك ، حضارة ليس فيها إلا عالم أو متعلم ، ترعى المحتاج وتؤوي ابن السبيل ، وتحاصر الأزمات وتقضي علي المشاكل ، تتمتع بالتنظيم والتخطيط ، حضارة يصدح فيها صوت الأذان من الشرق إلي الغرب بلا انقطاع لم يخل من صوت التوحيد وقت ، ولم يقف جهازها

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) انظر دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، معهد الدراسات الإسلامية . طبعة أولي ٨٧ ص ١٤.

الإعلامي عن تغذية العقول والأفكار بأصول وثوابت ومرتكزات هذه الحضارة . إنها حضارة الطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود ، حضارة الرجل والمرأة ، والشاب والكهل ، والقوي والضعيف ، والغني والفقي ، حضارة أهل الفكر وأهل الذكر ، حضارة المحدثين والمحدثين والفقهاء ، وأهل الزهد وأهل المعرفة بالله والولاية له ، حضارة النشاط والوعي بالزمن ، حضارة الجمال الحسي والمعنوي والتذوق الجمالي ، حضارة الضمير المؤمن ، حضارة ذابت فيها الفوارق وانقطعت الحواجز ، حضارة نصرة الضعيف وتواضع الخلفاء والعلماء والمفكرين.

ثانيا : أثر النظم الوضعية.

الإنسان قد يصدق ما يقرأ وما يسمع ولكنه أكثر تصديقا لما يشاهد ويبصر، وأثر النظم الوضعية علي الحضارة صورة معروضة علي الدنيا كلها في القرن الحادي والعشرين ، وقد تركت هذه النظم آثارها في المجتمعات التي تأخذ بها

١ - أثرها في الإنسان :

الإنسان مخلوق قابل للفجور والتقوى ، ويتوقف ذلك علي النظم التي تربيه وتغذيه ، ومدي تكاملها وشموليتها ، ومنهجها في النظرة إلي الإنسان كمخلوق مادي فقط أو مادي وروحي معا ، وقدرتها علي التعامل مع جميع طاقات الإنسان، وعندما نتأمل النظم الوضعية (المادية) فإننا نجد أنها لا تحمل عقيدة صحيحة تتناسب مع طاقات الإنسان المادية والروحية ، وإنما العقيدة في ظل النظريات الفلسفية والتربوية في الغرب تتشكل طبقا للرغبة : فالرغبة في شيء معين هي التي تولد في العقل حوافز الاعتقاد بالكون أو الوجود حسب مقتضيات تلك الرغبة، وعلي المناهج التربوية هناك أن تيسر للعقل سبيل هذه الحوافز"[1].

وأما القيم التي توجه هذه الحضارة ، فمقطوعة الصلة بالدين فضلا عن أن تكون موصولة بالله ، ويقتصر فيها علي المنهج التجريبي فيما يتصل بالطبيعة وعلم الاجتماع ، وقد أدي ذلك إلي التذبذب في مفهوم القيم التي تأخذ بها النظم الوضعية ، علي سبيل المثال قيمة الحرية والحق والعفة والصدق والعلم ، فالحرية عندما نتأمل وضعها في النظم الوضعية ، فإننا نجد أن الواقع في مجتمع

(١) د. محمد سعيد رمضان البوطي : منهج تربوي فريد في القرآن . ٧ نقلا عن عبدالحميد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية ١٠٩ .

الغرب ينبئ أن الحرية هناك تنفصل عن الإحساس بالمسئولية ، وتتم في غياب أدني شعور في الخضوع للمحاسبة ، أي في غياب الاعتقاد بوجود الله – عز وجل – بل إن الحرية هناك في تلك المجتمعات لا تكاد تجد لها أثراً في النفوس في مفهومها السليم وعمقها الأصيل ، وفي الموقف الماركسي نجده يكبل حرية الإنسان بما يسمى بالحتمية التاريخية . وعن قيمة الحق نجد أن الالتزام بالحق عرضة للفرار منها ، والتنكر لها ، لأنها في اعتبار الإنسان الغربي تتنافى مع اللذة الزائفة التي يجنيها من الطريق السهل ، طريق السكوت علي الحق "[1] .

وقد تركت هذه النظم المادية آثارها في الإنسان الغربي " فكان الافتتان وكان الغرور بالنفس والعقل و صدق الله العظيم إذ يقول : [إن الإنسان ليطغي . أن رءاه استغني] [2] .

فادعى لنفسه ما ليس لها ، ونسب إليها القهر ، والحكمة والعلم والإبداع ، وظهرت في الغرب المؤلفات التي تمجد الإنسان وترفعه ، من أمثال تلك الكتب " الإنسان يصنع نفسه " و " الإنسان يقف وحدة " أي دون أي معونة من الله ، ودون أي وصاية من الله ، ليكون سيد الأرض وقاهرها ، والمسيطر علي الطبيعة"[3] .

وقد ساعدت هذه الحضارة علي صياغة عقل الإنسان وفكره صياغة مادية مما أدي إلي : " عدم احترام خصائص الإنسان ، نمو الخصائص الآلية والحيوانية ، الخواء الروحي والنفسي ، تمزق الرابط الأسري ، قياس التقدم الإنساني بالمقاييس المادية "[4] .

٢ – أثرها في المجتمع

المجتمع المادي محكوم بتصرفات الأفراد فيه ، وقد وقفنا علي المعاناة التي يعيشها الإنسان في هذا المجتمع ، وكان لابد أن ينعكس ذلك علي جهاز المجتمع أو التنظيم الاجتماعي بالتهلهل والتحلل" ، وذلك في غياب القيم التي ترك للإنسان تحديدها ، فالوضعية التي نادي بها " أوجست كونت " عدت الإنسان كائنا يستطيع أن يشكل قيمه بنفسه ويحولها إلي دين وضعي ، يضبط حركته الاجتماعية ، ولا حاجة بعد إلي الأديان والقيم القديمة في زعمه ، ثم ظهر بعد قرن كامل من الصراع والتجربة أن

(١) المصدر السابق ١١١ وما بعدها .
(٢) سورة العلق آيات : ٦ ، ٧ .
(٣) توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية ٤٨٥ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٥٧ .

الإنسان لا يجد القيم المجردة عن المصالح ، لأن حب الإنسان لمصلحته موجها من جانبه الحيواني حال بينه وبين فهم الإنسان من حيث معناه وشموليته ، ومنعه من إيجاد تلك القيم المجردة التي تعبر عن المعني الشامل لإنسانيته "[1] .

وفي ظل هذه الآثار للنظم الوضعية جاءت علاقات الإنسان بمجتمعه مبنية علي المصالح المتبادلة فقط ، وهي بقدر ما تحققه من النفع المادي ، فلا تزاور ولا تعارف ولا تواص بالحق ، ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ، وإذا ما انتقلنا إلي العلاقات الاجتماعية الأخرى ، فإننا نجد أن الروابط الأسرية مفقودة وليس لها تأثير ، ولا ترتبط بغاية أو هدف ، وإنما هي محكومة بالشهوة واللذة وبعد ذلك يأتي الزواج الذي لا يعرف الضوابط من الزوج أو الزوجة ، مما أدي إلي ظهور أطفال غير شرعيين ، وأصبحت الحاجة ماسة إلي الملاجئ وبيوت رعاية غير معروفي النسب واللقطاء ، وحتى يكون حديثنا عن هذا النظام الاجتماعي موضوعيا في ظل آثار النظم الوضعية فلابد أن نتكلم عن عناصر ثلاثة :

الأول : التحرر الوجداني . فقد التقت الأفكار في المذاهب الوضعية الشيوعية منها والمدنية الحديثة ، علي أن التحرر الوجداني يكون في انطلاق الغرائز وإشباع الجسد والتحرر من القيم والأهداف العليا ، فغرق الناس في حمئة الجنس بتأثير هذا التحرر الكاذب ، ثم نسوا بذلك أنهم ينحرفون عن الأخلاق ويصبحون عبيدا للشهوة الحرام ، فراحوا يقولون : إن الجنس عملية بيولوجية بحتة ، لا علاقة لها بالأخلاق .

الثاني : المساواة الإنسانية . لا تعترف النظم الغربية بالمساواة ، ولا تعترف في كثير من الأحيان بحق الآخرين في الحياة ، فمثلا تبيح هذه النظم للضمير الأمريكي إفناء عنصر الهنود الحمر، وتبيح تلك التفرقة المقززة بين الأبيض والأسود ، وفي جنوب أفريقيا تمارس هذه التفرقة ، كما تبيح لحكومة روسيا والحبشة والفليبين وإسرائيل وغيرها إفناء المسلمين بالجملة ، ويضاف إلي ذلك حديثا ما تم في البوسنة وما وقع قريبا في أفغانستان و" حاليا العراق " ولقد نتج عن عدم المساواة والاعتداد بالجنس ، وبناء الغايات علي التعالي والعصبية ، كثير من الحروب والانحرافات.

سمع الناس شعار النازية والفاشية والإنجليزية ، فقال الألمان : ألمانيا فوق

(١) د. محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية ٧٢ .

الجميع ، وقالت إيطاليا : إيطاليا فوق الجميع ، وقال الإنجليز : سودي يا بريطانيا وأحكمي "[١] .

الثالث : التكافل الاجتماعي ، وقد أثرت هذه النظم المادية في هذا الجانب ، وكانت أهم مظاهر هذا التأثير، أن التكافل الاجتماعي الغربي يقوم علي الحقيقة التي توافق منهجهم الحسي والجسماني والحيواني ، فهم يعاملون الإنسان العاجز سواء كان كبير السن أو صاحب عاهة ، علي أنه حيوان لا يحق له إلا أن يأكل ويشرب في تلك الملاجئ إلي أن تأتيه منيته ، وكانت بعض الدول تتخلص من هذا الصنف ، لأنهم يمثلون عبئا علي الدولة والمجتمع ، وفي مجال الأسرة ،- إذا بلغ الولد- ذكرا كان أو أنثي – سن السادسة عشر ، فإن الأسرة تقصيه يصارع الحياة ، فتخرج البنت لا تجد أحدا بجانبها ، في مجتمع لا يعترف بالقيم بل يعتبرها ضعفا إنسانيا ، فتضطر إلي أن تأكل وتعيش إما بذراعها أو بجسدها "[٢] .

٣ – آثرها في الحضارة .

مفهوم الحضارة المتداول مادي ، وحتى عندما يشير بعض الباحثين إلي الضمير أو القيم الروحية ، فإن مفهومهم لذلك يدور في نفس الإطار المادي ، فأبحاثهم لا تنطلق عن وعي صادق وإنما تنطلق عن ظن وهوي وتخمين ، وهم أعجز عن التشخيص الحق للداء أو للدواء ، وحتى يكون وصف الحضارة موضوعيا علميا فلابد أن تجمع بين الحقائق المادية والروحية ، فما هو موقع الحضارة الغربية التي قامت علي النظم الوضعية ؟ يقول الكسيس كارليل : " اصبح كل شخص أكثر اهتماما بالاكتشافات التي تقلل من بذل المجهود الآدمي ... أكثر من اهتمامه بالاكتشافات التي تلقي بعض الضوء علي أجسامنا وإحساساتنا. وهكذا أدي قهر العالم المادي الذي استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة إلي نسيان العالم العضوي والروحي نسيانا تاماً "[٣].

وهذا يجعل مصطلح الحضارة أكبر من أن يطلق علي مدنية أوربا وأمريكا ، لأن هذه المظاهر تتجه في اتجاه مادي لا علاقة له بالروح ، وقد أدي ذلك إلي

---

(١) توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية ٥٥٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٥٦٢ .

(٣) الكسيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول تعريب شفيق أسعد فريد : مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٦ م ٢١ .

شقاء الإنسان " فإن العلم بمفهومه الغربي وفر للإنسان راحة الجسم ، ولم يوفر له راحة النفس ، حقق له الرفاهية المادية ولم يحقق له السكينة الروحية ، هيأ له الوسائل والأدوات ولم يهئ له المقاصد والغايات ، ولهذا عاش مزوق الظاهر، خراب الباطن .. ومن ثم رأينا الناس الذين يعيشون تحت سلطان هذه الحضارة يشكون من القلق والاكتئاب والخوف والأسي واليأس ، والغربة النفسية، والشعور بالضياع وتفاهة الحياة ، وأنها حياة لا هدف لها ولا رسالة ولا طعم ولا معني ، وهذا يحطم الإنسان من داخلة"[١] وباعتراف منهم يقول أحدهم : " إننا نواجه مشاكل أعظم خطورة تحتاج إلي حل سريع ، إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء علي إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمي التيفودية .. الخ ، فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال ، فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوي العقلية ، ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات علي عدد المرضي الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى، وكالجنون فإن الاضطرابات العصبية ، وضعف القوي العقلية آخذة في الزيادة ، وهي أكثر العناصر نشاطا في جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر .. إن الفساد العقلي أكثر خطورة علي الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن "[٢] .

وتبعا لذلك تعالت صيحات المحذرين تحذر الناس من خطر هذه الحضارة ، يقول العالم " رينيه ديو : "إن كل المفكرين قلقون علي مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابسة باطلة ، نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير ، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية و الفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة ، والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة ، والخليط الحضري المتمرد ، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء وتهمل البشر[٣] .

ويقول الفيلسوف الأمريكي "ديوي:"إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها ، ولا تثق

---

(١) د. يوسف القرضاوي : حاجة البشرية إلي الرسالة الحضارية لأمتنا ، وهبة طبعة أولي ٢٠٠٠ م ٨ .

(٢) ألكسيس كارليل:الإنسان ذلك المجهول،٣٤.

(٣) رينية ديوا : إنسانية الإنسان ، ترجمة دكتور نبيل صبحي الطويل . مؤسسة الرسالة ، بيروت ٣١.

بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة هي حضارة تدمر نفسها بنفسها "[١] .

وإذا ما نظرنا إلي ما يدور علي الساحة العالمية الآن في بقاع الأرض المختلفة، من حروب تذهب بالأنفس وتدمر كل ما أبدعه الإنسان ، وكل ما قام به من عمارة في هذا الكون ، عرفنا وعرف غيرنا من غير المسلمين أننا لم نتجاوز الحقيقة في حديثنا عن آثار النظم في الحضارة الغربية ، وقد صور أحد العلماء المسلمين ما يعانيه الأفراد في المجتمعات الغربية تحت وطأة النظم الوضعية كأثر من آثارها فقال : " إنه قد سلط علي الأمم الغربية شيطانان قويان يجرانها إلي ما فيه الهلاك . أولهما : شيطان قطع النسل والآخر شيطان القومية ، فالشيطان الأول قد سيطر علي أفرادها والآخر علي أممها وحكوماتها ، وإن الأول قد خرب عقول رجالها ونسائها يستأصلون أنسالهم بأيديهم . إنه يعلمهم تدابير منع الحمل ، ويحضهم علي تعمد الإسقاط ويلقنهم فوائد عملية التعقيم التي يقضون بها علي قوتهم التوليدية للأبد ، ويبعث فيهم من القسوة والغلظة ما يجعلهم يقتلون أولادهم بأيديهم ، فهذا هو الشيطان الذي يدفعهم تدريجيا إلي الانتحار ، وأما الشيطان الآخر فقد سلب أكابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح، فهو يبعث فيهم نزعات الأثرة أو المسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع ، وذلك يقسمهم ويفرقهم شيعا متعادية متحاربة ، ليذيق بعضهم شدة بعض ، وهذا أيضا من صور النقمة الإلهية "[٢] وقد أصبح هذا التنظير وتلك الرؤية واقعا حقيقيا ، ولا عجب في ذلك فسنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتحول . يقول – سبحانه– ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً {٤٣}﴾ [٣] .

(١) المصدر السابق ، ٤٣ .

(٢) أبو الأعلي المودودي : نحن والحضارة الغربية ، دار الفكر ، ص ٧٧ .

(٣) سورة فاطر آية: ٤٣ .

الخاتمة

بعد هذه الدراسة حول النظم الشرعية والوضعية ، النشأة والتطور نستطيع أن نقرر بعض الحقائق التالية :

أهمية دراسة نشأة النظم وتطورها للوقوف علي الحق في هذه القضية .

تؤكد النظم الإسلامية أن الإنسان الأول – آدم – عليه السلام – بدأ موحدا يعبد الله – سبحانه وتعالى – وأنه خلق خلقا مستقلا .

لم تكن نشأة الإنسان واضحة في النظم الوضعية وأرجعها الباحثون الغربيون إلي التطور عن أجناس أخرى كما يرى داروين ، وكذلك نشأة الأسرة فقد دار حولها الاختلاف وتعددت الآراء.

أن النظم الإسلامية بدأت مع الإنسان الأول – آدم – وذريته .

تطورت النظم الإسلامية من جيل إلي جيل لتحقق تربية الإنسان وترعي حاجاته بما يتفق مع زمانه ومكانه .

جاءت الثوابت التي لا تتغير كما جاءت الضوابط التي تتناسب مع كل جيل وكان ذلك واضحا في تعدد رسالات الأنبياء وشرائعهم .

جمعت الشريعة الخاتمة – رسالة سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – بين مقومات الثبات والتطور .

أن الحضارة المادية والنظم الوضعية تتفق في أسسها مع الحضارات الوضعية القديمة وخصوصا منها الرومانية واليونانية .

أخرجت النظم الإسلامية للإنسانية حضارة ربانية ، تعانقت فيها الحقائق المادية والمواهب الروحية ، فأثمرت الأمن والسلام ، بينما وقفت حضارة النظم الوضعية عند التعامل مع الجانب المادي للإنسان والحياة فجلبت الشقاء والتعاسة كما عبر عن ذلك فلاسفتهم وحكماؤهم.

أهم المراجع

القرآن الكريم .

السنة النبوية وشروحها .

مراجع التفسير .

المراجع العامة :

.الإحكام في أصول الأحكام ، الآمدي ، الحلبي ١٩٦٧ م

. إخراج الأمة المسلمة ، د.ماجد عرسان ، كتاب الأمة ١٩٩١.

. أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، د. أحمد كنعان ، كتاب الأمة ، طبعة أولي ١٩٩٠ .

. أسس علم الاجتماع د.محمد عبدالسميع عثمان ، المكتب الفني بالزيتون

. الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآني ، محمد تقي الأمين ، مراجعة د. عبدالحليم عويس، دار الصحوة ١٩٨٥.

.الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ، كتاب المختار ، ١٩٩١ .

. أضواء علي النظم والثقافة الإسلامية د. عبدالغفار عبدالعزيز وآخرون.

. أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، راجعة طه عبدالرؤوف سعد، الكليات الأزهرية ١٩٦٨ ..

. أفكار ورجال ، كرين برنتن ، ترجمة محمود محمود ، الإنجلو المصرية. ١٩٦٥ .

. الإلحاد ، عبدالرحمن عبدالخالق ، مكتبة الحرمين ، طبعة ثانية .

. الإنسان الأول والتشريع السماوي د.محمد طموم ، مطبعة حسان ١٩٨٤.

. الإنسان ذلك المجهول ، الكسيس كارليل ، تعريب شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف ، بيروت .

. الإنسان في ظل الأديان ، دكتور عمارة نجيب ، المكتبة التوفيقية ١٩٧٧

. إنسانية الإنسان ، رينية ديبو ، ترجمة د. نبيل صبحي ، مؤسسة الرسالة

. بين الدين والعلم ، أندرو ديسكون ، ترجمة اسماعيل مظهر ، دار العصور بمصر ١٩٣٠ .

. حاجة البشرية إلي الرسالة الحضارية لأمتنا ، د. يوسف القرضاوي ، وهبة ، طبعة أولي ، ٢٠٠٠ .

. حجة الله البالغة ، عبدالرحيم الدهلوي ، دار التراث ، ١٩٧٧ .

. حضارة الإسلام ، د . سعيد عبدالفتاح عاشور، طبعة أولي ١٩٨٧ م.

. الحضارة الإسلامية ، مقارنة بالحضارة الغربية د. توفيق الواعي ، دار الوفاء بالمنصورة ، طبعة أولي ١٩٨٨ .

. حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، محمد قطب ، مؤسسة بدران ،

. الخصائص العامة للإسلام ، د. القرضاوي .

. الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ، منصور زويد ، كتاب الأمة ، طبعة أولي ١٩٩٣ .

. قاموس علم الاجتماع ، د. محمد عاطف غيث ، الهيئة العامة للكتاب .

. قصة الحضارة ، ول ديورنت .

. قضايا علم الاجتماع ، أوسيبوف، ترجمة سمير نعيم،دار المعارف ١٩٧٠ م .

. القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، د. عبدالمجيد بن مسعود، كتاب الأمة طبعة أولي ١٩٩٩ م .

. القيم الحضارية في رسالة الإسلام، د. محمد فتحي عثمان ، الدار السعودية للنشر، الطبعة الأولي ١٩٨٢.

. قيم حضارية في القرآن الكريم ، توفيق سبع، دار المنار ، القاهرة ١٩٨٤.

. كتبوا علي الطين ، ادوارد كبير ، ترجمة د. محمود محمود ، الأنجلو المصرية.

. كيف نتعامل مع القرآن ، د. يوسف القرضاوي ، دار الشروق ، طبعة ثالثة ، ٢٠٠٠ .

. ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ، مكتبة الإيمان، المنصورة ، ١٩٩٤ .

. مباحث في الثقافة الإسلامية ، د. بكر ذكي عوض .

. مبادئ تاريخ القانون ، د. صوفي أبو طالب ، دار النهضة العربية .

. المدخل لدراسة النظم الإسلامية ، د. محمد رأفت سعيد ، هجر للطباعة والنشر .

. المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري د. عبدالمحسن عبدالحميد ، كتاب الأمة ، طبعة ثانية ١٤٠٤ هـ .

. المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية .

. مهمة الإسلام في العالم ، محمد فريد وجدي ، هدية مجلة الأزهر ١٤٢٢

. نحن والحضارة الغربية ، أبو الأعلي المودودي ، دار الفكر .

. نظرات في نظم الإسلام وثقافته ، د. مصطفي أبو سمك ، المؤسسة العربية الحديثة ١٩٨٨.

. الوحي المحمدي ، محمد فريد وجدى ، ١٩٨٨ .

الفهـــــرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٨٨٣
المبحث الأول : مفهوم النظم	٨٨٤
أولاً : في اللغة	٨٨٤
ثانياً : في الاصطلاح	٨٨٥
١ – مفهوم النظم في الإسلام	٨٨٥
٢ – مفهوم النظم الوضعية	٨٨٧
المبحث الثاني : نشأة النظم	٨٨٩
أولاً : نشأة النظم في التصور الإسلامي	٨٨٩
ثانياً : نشأة النظم الوضعية	٩٠٠
ثالثاً : موازنة بين النشأتين	٩٠٢
المبحث الثالث : النظم بين الثبات والتطور	٩٠٧
أولاً : النظم الإسلامية	٩٠٧
١ – ثبات المصدر (الوحي الإلهي)	٩٠٧
٢ – ثبات النظم وتطورها	٩١١
٣ – مقومات التطور في شريعة سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–	٩١٦
٤ – اعترافات وأقوال	٩٢٤
ثانياً : النظم الوضعية	٩٢٦
١ – في القديم	٩٢٦
٢ – المصادر الحديثة	٩٢٨
٣ – بين القديم والحديث	٩٣٠
٤ – النظم الوضعية بين الثبات والتطور	٩٣٣
المبحث الرابع : أثر النظم	٩٣٦
أولا : أثر النظم الإسلامية	٩٣٦
١ – أثرها في بناء الإنسان	٩٣٦
٢ – أثرها في بناء الأسرة	٩٣٧
٣ – أثرها في بناء المجتمع	٩٣٩
٤ – أثرها في بناء الأمة	٩٤٠
٥ – أثرها في بناء الحضارة	٩٤٣
ثانياً : أثر النظم الوضعية	٩٤٧
١ – اثرها في الإنسان	٩٤٧
٢ – أثرها في المجتمع	٩٤٨
٣ – أثرها في الحضارة	٩٥٠
الخاتمة	٩٥٣
أهم المراجع	٩٥٤
الفهرس	٩٥٦